
علي أحمد باكثير
8
سلامة القس

مطبوعات مكتبة مصر

سلامة القس

تأليف

علي أحمد باكثير

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"
سعيد جوده السحار وشركاه

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ولقد همّت به وهمّ بها لولا أن رأى برهانَ ربِّه ﴾

(قرآن كريم)

الفصل الأول

استيقظ عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار فى الهزيع الأخير من الليل على صوت الأذان الأول لصلاة الصبح ، فنهض عن فراشه ، وفتح كُوَّةً من كُوى غرفته ، فأطل منها على الفضاء المنبسط أمامه وقد اشتملت أقاصيه بالظلام السابغ ، وبقيت تختلج فى أدانيه ، وعلى رءُوس التلال البعيدة من الجانب الآخر ، وعلى أعالى قصور مكة البيضاء عن يمينه وشماله أطياف من ضياء القمر الغارب فى الأفق .

وشعر عبد الرحمن بتيّارٍ من ريح الشتاء البليلة يتسرب إلى الغرفة ، فأصلح جيبْ قميصه ، وتناول رداءَه فلفه حول عنقه ، وأرخى طرفيه على صدره ، فأحس بدفء لذيذ أغراه بالعودة إلى فراشه ريثما

يطلع الفجر الأول ، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى أحس بالنعاس يداعب جفنيه وأيقن أنه سينتهى به إلى سبات عميق قد يفوّت عليه صلاة الجماعة فى المسجد ، وتذكّر أيضاً أنه لم يكمل تلك الليلة حزبه من القرآن ، فاستعاذ بالله من الشيطان ، ورمى لحافه عنه بقوة ، وقام إلى الميضأة فتطهر وتوضأ ورجع إلى الغرفة ينتفض من البرد ، فأماط فراشَهُ عن الحصير فوقف عليه وصلى ركعتى الوضوء . فلما أتم صلاته كان أول خاطر هجم عليه أن تذكر أمه العجوز البرَّة التى كانت تعنى بأمر صلاته وقيامه ، فكان ينام كما يشاء مطمئنا إلى إيقاظها إياه فى الوقت المطلوب .

وكانت أم عبد الرحمن امرأة صالحة ربّته منذ صغره على التقوى والعبادة ، وزرعت فى قلبه حب الفقه فى الدين . وكانت تكفيه هموم عيشه وتقوم بتدبير المال الذى تركه أبوه لهما إذ مات ولما يسلخ عبد الرحمن الثانية من عمره ، فتولت تربيته وسلمته لأحد أقاربها فحفظ عنه القرآن قبل العاشرة ، وحبّبت إليه المسجد الحرام ، فكان يعتكف فيه أغلب الأيام ، يروى عن علمائه الحديث ويتلقى عنهم الفقه ، ولا يرجع إلى بيته فى أطراف مكة إلا آخر النهار ، فيجلس إلى أمه يدارسها القرآن ويذاكرها الحديث .

كان همها منذ توفى زوجها أن ينشأ ابنها الوحيد عالما فقيها كسعيد ابن المسيب أو كعطاء بن أبى رباح ، وكانت تدعو الله فى صلاتها أن يحقق لها هذا الأمل ، فاستجاب الله دعوتها فلم تمت حتى رأت ابنها الشاب مضرب المثل بمكة فى فقهه وعبادته ، حتى لقبه أهل مكة : « القس » ، وغلب عليه هذا اللقب حتى كاد لا يعرف إلا به . وكان اسم عبد الرحمن القس عنوانا للشاب العفيف الناشىء فى عبادة الله ، الملازم للمسجد ، الفقيه فى الدين . وكان الشيوخ والكهول يروون عنه الحديث ولا يجدون حرجاً فى استفتائه وتلقّى العلم عنه . واشتهر أمره فلم يكن من بيت بمكة لم يسمع به . كانت المرأة من نسائها تُعلِّل ابنها الرضيع بأن ينشأ نشأة القسّ ، وكان الرجل يتمنى على الله لو رزقه ولدًا مثله .

تذكر عبد الرحمن أمه الصالحة وتذكر حسن تربيتها له وقيامها عليه وكفايتها إياه هموم العيش ليتفرغ للعبادة والعلم ، فعاوده الحنين إليها واشتد به الحزن عليها ، وكان قد خفّ عنه ذلك بعد ما انصرم على وفاتها عام قضاه عبد الرحمن فى أشد الحزن وأمضّ الذكرى ، حتى اعتلت صحته وساء حاله . ولكنه كان يأخذ نفسه بالصبر والرضا بقضاء الله ، ويلجأ إلى الصلاة والعبادة كلما طاف به طائف من

اللوعة والبث ، مكتفيا بالدعاء لها والترحم عليها . وكان فى ذلك يعمل جُهْده بوصيتها له وهى تحتضر ، إذ قالت له فى سكرات الموت : « أستودعك الله يا عبد الرحمن . لا أراك تجزع لموتى وتنسى الأنس بالله » .

ولكن عبد الرحمن كان رقيق القلب ، دقيق الحس ، فلم يفلح فى اقتلاع الحزن على أمه من قلبه ، فظل يعاوده الفينة بعد الفينة ؛ على أنه كان لايفتأ يجاهد نفسه على العمل بوصية أمه ؛ وكان يجد فى العبادة أكبر عون له على تناسى آلامه ، لولا أن هذه العبادة كانت كثيراً ما تثير شجونه ، لاقتران أسبابها بذكريات أمه التى كانت توقظه فى الساعة المطلوبة من الليل ، وتقرب له الوضوء ، وتتهجد معه ، حتى إذا دنا وقت الصلاة نبهته للخروج إلى المسجد ، وشيَّعته إلى الباب بعد ما زودته بشىء من التمر والقديد يتبلغ به فى المسجد إذا هو نوى الاعتكاف فيه ، أو يفطر عليه إذا كان صائماً .

استرسل عبد الرحمن كذلك فى ذكريات أمه ، ولكنه ذكر مرة ما لم يكمله تلك الليلة من حزبه القرآنىّ ، وكان عليه أن يكمله قبل خروجه إلى المسجد ، فاقتلع نفسه من تلك الذكريات العارضة بعد أن دعا لأمه وترحَّم عليها ، ومسح بردائه عبرة كانت تترقرق فى

عينيه ، ثم طفق يقرأ القرآن بصوته الحنون الحزين . وكان إذا قرأ القرآن استغرق فيه ونسيى ما حوله ، حتى إنه كان لا ينتبه لمرور الوقت إلا بما يأتى عليه من أجزاء القرآن ، أو يتمه من سوره ، فيعرف الوقت بذلك . ولكن استرساله فى ذكرياته تلك الليلة قد أخذ جزءا غير قليل من وقته ، فأخطأ فى تقديره فما نبهه إلى ذلك إلا خَفْقُ النعال فى الشارع ، فعرف من ذلك أن جيرانه فى تلك المحلَّة قد أخذوا يتوجهون إلى المسجد لشهود صلاة الصبح . وكان من عادته أن يخرج قبل هؤلاء ؛ فنهض قبل أن يتم حزبه من القرآن وفتح الكُوَّةَ مرة أخرى فرأى نور الفجر قد انتشر فى الأفق ، فارتدى ثيابه ولبس خُفّيه ، وألقى على كتفيه عباءته البيضاء ، وتناول رداءه من الكتان الأبيض فأداره ثم كوَّره على رأسه ، وخرج مسرعا يقرع الدَّرَج بِخُفَّيْه حتى انتهى إلى الباب ففتحه فخرج ثم أغلقه ، وانتزع أقليده من الفتحة الصغيرة التى على جانب الباب فغرزه فى وسطه ، ومضى منطلقاً فى طريقه إلى المسجد وهو يقرأ ما بقى عليه من حزبه .

سار عبد الرحمن ينهب الأرض بخطواته الواسعة السريعة لا يلوى على شىء ؛ فسبق كثيراً من الرجال الذاهبين إلى الصلاة من شباب وكهول يمشون بقوة ، وشيوخ عُجَّز يخطُّون الأرض خطا ، فخلفهم

جميعاً وراءه . فقد كان على ما ألمَّ به من الحزن لوفاة أمه — واعتلال صحته لذلك — قويَّ البنية شديد الأسر نشيط الحركة . فلما دنا من المسجد رأى الناس يدخلون إليه أفواجاً من أبوابه المختلفة ، فدخل هو من أحدها . وبينا هو فى طريقه قاصداً جهة الكعبة إذ لمح على مقربة منه شيحاً هَرِماً قد قارب الثمانين من عمره ، يدب دبيباً إلى جهة الكعبة وقد تقوس ظهره وتهدل جفناه على عينيه ، فدنا منه عبد الرحمن وحياه قائلا : « السلام عليك يا أبا الوفاء » .

فرد العجوز السلام ورفع رأسه فى شيء من الجَهْد ، فظهر واضحاً وجهه ذو التجاعيد ، وحاجباه الأبيضان ، ولحيته البيضاء الضاربة فى صدره ، وجُمَّته المرسلة إلى شحمتى أذنيه ، تطل أطرافها من تحت عمامته الخضراءِ كأنها الفاغية ؛ فلما رأى عبد الرحمن لمعت عيناه ببريق الفرح ، حتى كأن شبابه الماضى كله قد عاد إليه متجمِّعاً فى عينيه وقال : « مرحباً يا بن أبى عمار .. أهلا بك يا بنىّ . أين كنت أمس فقد بحثت عنك فلم أجدك ؟ إنى أريدك فى أمر جَلل ! » .

فأجابه عبد الرحمن قائلا : « خيرًا يا عم » .

قال الشيخ : « سأحدثك به بعد الصلاة فلا تنصرف حتى



فـرد العجـوز السلام ورفـــع رأسه فى شيء
مـــن الجهد فظهر واضحًا وجهه ذو التجاعيد

أراك » .

فقال عبد الرحمن : « سمعًا يا أبا الوفاءِ » . ونظر إلى وجه الشيخ كمن يحاول أن يعرف ما ذلك الأمر الجَلل الذى يريد الشيخ أن يتحدث إليه فيه ، ولكن الشيخ لم يمهله أن قال : « انتظرنى عند حلقة الدرس » ، ومضى فى سبيله إلى حيث يأخذ مكانه فى الصلاة ، وكذلك فعل عبد الرحمن .

الفصل الثانى

فى ذلك الحين كانت عجوز شمطاءُ فى نحو السادسة والخمسين من عمرها تمشى فى دهليز ضيق فى بيتها الصغير الواقع فى طَرَف من أطراف مكة مما يلى الحَجُون . وكانت تحمل فى يدها شمعة تضىء لها الدهليز حتى وقفت عند باب غرفة صغيرة فأخذت تقرعه وتصيح منادية : « سلاّمة ! سلاّمة ! سلاّمة ! قومى يا بنت ! اصحى يا جارية قد طلعت الشمس وأنت نائمة ! » .

وقرعت الباب قرعا أشد من الأول فلم يجبها أحد ، ففتحته فإذا غرفة ضيقة قد ظهر فى جانب منها على ضوءِ الشمعة سرير رث تنام عليه فتاة مدثرة بلحاف قديم . اقتربت العجوز من السرير وهى تقول : « سلاّمة .. قومى ياشقية » . وسحبت اللحاف عن الفتاة فأخذت تتمطّى وتتثاءَب وتتقلب من جنب إلى جنب وهى تقول : « آه .. دعينى يا مولاتى نائمة ـــ ما يزال الوقت مبكرًا » . قالت ذلك وأعادت اللحاف على جسمها .

عليهما ثلاثة من الزبانية بأيديهم سياط من نار)

صلاح الدين : انظر . هذا زعيم الحركة الصهيونية الذى يدعى هرتزل .

ريتشارد : أيهما ؟ إنهما اثنان .

صلاح الدين : الذى وجهه إلينا .

ريتشارد : حقا كأنه وجه شيطان . ومن الآخر ؟

صلاح الدين : ظهره إلينا . لا أستطيع أن أتبين وجهه (**يتحرك إلى مكان آخر ليتمكن من رؤية وجهه**) عجبا أشد العجب ؟

ريتشارد : عرفته ؟

صلاح الدين : نعم هذا هتلر .

ريتشارد : ومن هتلر ؟

صلاح الدين : زعيم ألمانيا الذى كان يضطهد اليهود .

ريتشارد : كان يضطهد اليهود ؟

صلاح الدين : ويشويهم فى أفران موقدة .

ريتشارد : هو إذن يستحق الثواب والثناء فكيف يعذب ؟

صلاح الدين : كلا يا صديقى بل يستحق اللعنة من كل إنسان لقسوته المتناهية ولإهداره للكرامة البشرية .

ريتشارد : وقتلة المسيح هؤلاء حتى احترموا الكرامة البشرية ؟ إنك لا تعرف ما فعلوا بنا نحن المسيحيين على

جميلة مطربة المدينة المشهورة » .

فتنهدت العجوز وقالت فى لهجة يشوبها الاستنكار والشماتة : « نعم .. أى شىء يأتينا من أهل المدينة إلا هذا ؟ أوَّاهُ من فساد الزمان !! . »

« آه يا مولاتى ما أعذب صوتها وأجمل غناءَها ! » .

« هل كنت تتسمعين إليها ؟ ويل لك ، لماذا لم تَسدِّى أذنيك وتنامى ؟ »

انفجرت الجارية ضاحكة ضحكات متقطعة ، كأنها تستغرب هذا القول من سيدتها وقالت : « أسُد أذنىَّ وأنام ؟ هئْ هِئْ هئْ هِئْ .. وهل كان فى وسعى ذلك ؟ إن صوتها يا مولاتى ليتسرب إلى أذنى كما يتسرب الأمل الحُلو — كما يهبُّ النسيم العذب — كما يداعب النعاس الأجفان ! » .

وأخذت الجارية تتثنَّى وتُميلُ رأسها يمنة ويسرة ، ثم نهضت عن سريرها فى نشوة وهى تترنم : تن تن تن تن تن تن تن ! تن تن تن تن تن تن تن ! » .

فقاطعتها العجوز وهى فى حالة وسط بين الغضب والضحك قائلة : « صه ، اسكتى يا فاعلة ! »

ولكن الجارية لم تشأ أن تسمع لمولاتها واستمرت مترنمة : « تن تن تن تن تن تن تن ! » وطفقت ترقص فى انتشاءٍ وغنج وهى تغنى :

« ليت هندًا أنجزتنا ماتعدْ وشفتْ أنفسنــــا مما تجدْ
واستبدّتْ مرّةً واحدةً .. ..

ورأت أم الوفاءِ أنها قد صبرت لسلامة أكثر مما ينبغى لها أن تصبر عليه ، فنهرتها ووضعتْ يدها على فمها قائلة : « صه اسكتى ! لم يبق إلاَّ أن ترقصى وتغنى هنا . هيَّا اذهبى فصلى واحلبى اللبن ثم اخرجي بالغُنَيْمات إلى المرعى لتعودى إلينا قبل الظهر » .

وعرفت سلامة الجد فى مولاتها فما وسعها إلا أن تطيع أمرها قائلة : « سمعًا يا مولاتى ، هاأنذا نازلة » . وأخذت عباءَتها فألقتها على كتفها متأهبة للخروج ، ولكنها عز عليها أن لا تتمكن من إتمام رقصتها وأغنيتها فخرجت من الباب وهى ترقص وتغنى : « إنما العاجز من لا يستبد » .

ومشت أم الوفاءِ وراءَها تتبعها وهى تقول : « حسبك الله يا جميلة ! ستفسدين علينا جوارينا » .



وأخذت الجارية تتثنى وتميل رأسها يمنة
ويسرة ، ثم نهضت عن سريرها فى نشوة .

الفصل الثالث

ونعود إلى المسجد الحرام فنرى الناس قد فرغوا من صلاة الصبح ، فمنهم من رجع إلى بيته ، أو انصرف إلى عمله ، ومنهم من بقى فى المسجد يذكر الله ، أو يتلو القرآن ، ويطوف بالكعبة ، أو يستمع إلى حلقة من حلقات الدرس ، حتى تطلع الشمس وترتفع قدر رمح فيصلون النافلة ثم ينصرفون ، إلا من نوى الاعتكاف بالمسجد فيبقى فيه ولا يرجع إلى بيته إلا بعد صلاة العشاءِ .

وهذا جانب من المسجد قد استدارت فيه حلقة يستمع الناس فيها إلى أحد العلماءِ وهو يقول : « ... عن النبى ﷺ أنه قال :(خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم).. فأبشروا أيها الناس إنكم من خير القرون ، احمدوا الله حق حمده على هذه النعمة الكبرى ، واعرفوا حقها بالشكر ، فإن الله تعالى لم يجعلكم من خير القرون إلا لتقوموا خير القيام بطاعته ، وتكونوا بذلك أهلا لبشارة نبيه . ألا فمن خالف منكم كتاب الله وسنة رسوله فسوف يحاسبه

الله حِسابَين عسيرين على ذنبه ، وعلى ما أضاع من نعمته ... » .

وكانت الشمس قد طلعتْ بحيث تحل الصلاة ، وأخذ الناس يتنفلون ، وهذا الشيخ أبو الوفاءِ يُسَلِّمُ من صلاة النَّفْل ويدعو : « ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » . وإلى جانبه رجلان كهلان من أصحابه قد فرغا أيضًا من صلاتهما ، وأخذا يدعوان . وما انتظر الثلاثة طويلا حتى أقبل عليهم عبد الرحمن ابن أبى عمار فسلَّم عليهم فردوا عليه السلام ، ونهضوا له فصافحهم وقال : « كيف أنت يا أبا الوفاءِ ؟ كيف أنتما يا أخويَّ ؟ » .

فأجاب أحد الكهلين : « إننا بخير يا بن أبى عمار .. ولكن أين كنت أمس ؟ لقد التمسناك فلم نجدك لا فى المسجد ولا فى البيت » .

قال عبد الرحمن : « لقد خرجتُ عقبَ صلاة الصبح إلى ضيعتنا بالوادى أنظر فى شأنها ، ولم أعد إلاَّ لَيْلا » .

والتفت الكهل إلى الشيخ قائلا : « ألا تخبره يا أبا الوفاءِ بالأمر ؟» .

فتنحنح أبو الوفاءِ ونظر إلى عبد الرحمن نظرة ملؤها الحب والعطف قائلا : « إنا نريد أن نتحدث إليك فى أمر خطير ، فأرعنى سمعك يا بنيَّ » .

فقال عبد الرحمن : « خيرًا يا عم » .

واستمر أبو الوفاءِ قائلا : « إنك تعلم مالك من مكانة فى الناس لصلاحك وتقواك وفقهك فى الدين على حداثة سنك ، حتى لقَّبك أهلُ مكة القَسّ ، واعتبروك بحقٍّ خليفة عطاءِ بن أبى رباح ، وأن جميلة المغنية قد وردت إلى هذا البلد الأمين ونزلت عند جيراننا آل سُهيل ، وقد شغلتنى عن صلاتى البارحةَ والليلة التى قبلها بغنائها وباطلها ، فهل لك أن تكلم الوالى فى شأنها عسى أن يأمر بإخراجها قبل أن تفسد علينا فتياننا وفتياتنا » .

فأمرَّ عبد الرحمن يده على جبينه قائلا : « أجل يا عم قد بلغنى ذلك فاغتممت لأمره ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله . إن الشيطان قد يئس من هذه البلدة الطاهرة فجاءَ أهلها من طريق الغناء » .

قال الشيخ : « فاذهب الغداةَ إلى الوالى ، فكلمتك إن شاءَ الله مسموعة » .

فاعترض عبد الرحمن قائلا : « ولكننى نويت الاعتكـاف فى المسجد هذا اليوم » . فأجابه أبو الوفاءِ : « إن الاعتكاف سنة وهذا فرض عليك يا بنى ، فلا عليك أن تُقدِّمَ الفرض على السنّة » .

سكت عبد الرحمن هنيهة ثم قال : « سمعا يا أبا الوفاءِ .. وإن

كنت لا أجد لذلك فائدة كبيرة ، فطالما تردّدتُ إلى الوالى أكلمه فى أمر الشاعر الفاجر عمر بن أبى ربيعة إذ يتعرَّض للمحصنات فيشبِّب بهن ويفترى عليهن ... » .

و لم يملك أبو الوفاءِ نفسه أن صاح قبل أن يتم عبد الرحمن جملته قائلا : « أجل وهل تغنَّتْ الفاجرةُ البارِحَة إلاَّ بشعر هذا الفاجر ؟ » .

ودهش الشيخ إذ سمع أحد الكهلين يسأله فى اهتمام واضح : « بأى شعره تغنت ؟ وكان الكهل أدرك ما فى سؤاله هذا من النبوّ فعلا وجهه الخجل . ولكن أبا الوفاءِ لم ير بأساً فى أن يجيبه فقال وقد ألان من لهجته : « بقوله — لحاه الله — ليت هندا أنجزتنا ماتعد » . فتبسم عبد الرحمن وقال الكهل الآخر : « ولكنى سمعت من حدثنى أنه سمع ابن عباس ينشد بعض هذا الشعر فى المسجد » .

فعاودت الحدَّة أبا الوفاءِ وقال : « معاذ الله ، لقد كذب عليه من حدَّثك . الله للناس ! ألم يكذبوا على صاحبنا عطاءِ بن أبى رباح ويجرؤ شاعرهم أن يقول :

سَلُوا المُفْتىَ المكيَّ هل فى تزاورٍ
وضمّةِ مشتاقِ الفُؤاد جُناحُ

فقال معاذَ الله أن يُذهِبَ التقى
تلاصُق أكبادٍ بهن جراحُ

فسكت الكهلان و لم يجيبا وطفق كلاهما ينظر إلى الآخر .

ولحظ عبد الرحمن حيرتهما فقال لأبى الوفاءِ فى لهجة ناعمة : « كلا يا عم لم يكذب محدثه ، لقد حدثنى الثقة أيضًا أنه سمع ابن عباس ينشد بعض هذه الأبيات » .

فنظر إليه الشيخ مستغربًا واستمر يقول : « ولكن الإنشاد غير الغناءِ الذى يغزو قلوب الناس بالإثم ويلهيهم عن ذكر الله » .

فسُرِّى عن الكهلين وخفض أبو الوفاءِ رأسه وقال بصوت رقيق : « على أى حال أنشدك الله يا بنى إلا ما ذهبت الغداة إلى الوالى لعَله يسمع قالتك هذه المرة ، فيطرد عنا هذه الفاجرة ؟ » .

فقال : « طاعة يا أبا الوفاءِ .. سأفعل » .

« بارك الله فيك يا بنى ووفقك للخير » . قال هذا أبو الوفاءِ واتجه صوب الباب ليخرج وتبعه الثلاثة صامتين .

الفصل الرابع

خرجت سلامة بشويهاتها إلى المرعى بعد أن صلت الصبح وحلبت اللبن لمولاتها العجوز ، وكان ذلك قبل شروق الشمس ، وكانت غداة باردة من غدوات الشتاءِ تحمل السائر على النشاط والحركة ، وتبعث فى النفوس البهجة والانشراح ، والشتاءُ بمكة كالربيع فى غيرها من البلدان المعتدلة ، ولذلك كان سَرَوَاةُ أهل الحجاز يشتون بمكة ويصيفون بالطائف ، وكان هذا عنوان السراوة والترف عندهم .

كانت سلامة جارية من مولدات المدينة ، ابتاعها أبو الوفاءِ صغيرة لم تتجاوز الثامنة لتساعد زوجه أم الوفاءِ فى القيام بشؤون بيتها ، فترعرعت الجارية فى كنف هذا البيت الصالح ، وأحبَّتها أم الوفاءِ فأحسنت تربيتها ، وعلمتها سُوَراً من القرآن ، ولم تأل جهداً فى البرِّ بها والعطف عليها ، ومما زادها حباً فى الجارية وتعلقاً بها أن أولادها لم يسْلَمُوا لها ، وقد يئست من الولد حين كَبِرتْ وكَبِرَ

زوجها فكانت تعتبر سلاّمة كابنتها ، ولم تضن عليها بالتدليل كما تفعل الأم مع ابنتها ، فنشأت سلامة لذلك متدللة تشعر أن لها سلطاناً على مولاتها ، وأنها أشبه بابنة البيت منها بجاريته .

وكان أبو الوفاءِ يحنو عليها أيضًا ويرفق بها ، وكانت تحترمه وتجله ، إلا أنها لم تكن تتطلَّق له تَطَلُّقَها لأُم الوفاءِ ، وذلك لما يكسو طلعته من المهابة والوقار ولقلة عشرتها له ، إذ كان يقضى جُلَّ نهاره فى المسجد ، فكانت لا تراه إلا نادراً فى وقت الظهيرة حين يرجع للغداء ، أو فى طرف الليل حين يأوى للمبيت .

وكانت سلامة من صغرها صبيحة الوجه ، فصيحة اللسان ، حلوة الحديث ، متوقدة الذهن ، لعوباً تميل إلى الدعابة والنكتة . وكانت جميلة الصوت فى صوتها رخامة وحنان . ولو نشأت فى بيت آخر غير هذا البيت الصالح بين أم الوفاءِ وأبى الوفاءِ لما بقيت — وقد جاوزت الرابعة عشرة من سنها — تخدم المنزل وترعى الغنم . كانت على حبها لمولاتها ومولاها تشعر فى قرارة نفسها شعوراً مبهماً بأنها لم تخلق لهذا البيت ، وأنها خلقت لشىء آخر لا تعرفه تمام المعرفة ، ولكنها تحِسُّ به إحساساً عميقاً . كانت تميل إلى الغناءِ فلا تكاد تسمع لحناً حتى تحفظه ، إلا أنها كانت قليلا ما تجد السبيل إلى سماع

الغناء فى ذلك الحىّ الذى يسكن فيه أبو الوفاءِ أللهم إلا ما تسمعه من الألحان الدارجة تتغنى بها الجوارى والغلمان فى شوارع مكة ، أو تلك التى تترنم بها الراعيات والرعاة فى مواقع الكلإ خارجها حين كانت تخرج إليها بغنم مواليها .

ولكنَّ سَرِيًّا من سَرَاةِ أهل مكة اشترى — لعام مضى ذلك الحين — حديقة كبيرة بجوار بيت أبى الوفاءِ فى طرف من مكة ، وابتنى بها داراً فخمة سامقة البناءِ ، وعنى بالحديقة حتى جعلها بهجة للناظرين ، فتغير ذلك الحى الساكن المتواضع منذ نزل به هذا السرى وشاعت فيه الحركة والبهجة ، واكتسى ثوباً من العظمة والبذخ . وكان ابن سهيل قد ورث مالا كثيراً عن أبيه ونشأ نشأة النعمة واليسار . وكان محباً للغناءِ واللهو مولعاً بمنادمة الشعراءِ والمغنين يستقدمهم من الآفاق ويغدق عليهم الأموال . فقلما اشتهر شاعر فى ذلك العصر أو نبه صيت مغن أو مغنية إلا كانت لابن سهيل صلة به .

وكان لحلول هذا السرى المنخرق الكف المولع بالغناء والشعر فى هذا الحى من أحياءِ مكة أثره الكبير فى حياة سلامة . وكأنما كان ذلك تدبيراً مقصوداً من القضاء ليطلع فى المستقبل من تلك الجارية المجهولة فى بيت أبى الوفاءِ شمساً ساطعة فى الغناءِ ، تشرق أنوارها على أوساط

النعمة فى الحجاز وقصور الخلافة فى الشام .

قدمت جميلة كبيرة مغنيات المدينة قدمتها تلك إلى مكة فنزلت عند ابن سهيل فى هذه الدار الجديدة ، ولقيت عنده ما يليق بمقامها وشهرتها من من الحفاوة والإكرام ، وأحيت بها ليالى للغناء سطع فيها فنها الرفيع وشهدها كثير من محبى الغناءِ بمكة وذاع بعض ألحانها حتى تغنى به الناس فى الشوارع . وأحدث مقدمها ضجة كبيرة وأشفق الفقهاءُ ورجال الصلاح والتقوى من أن يفتتن بها الناس ، ولاسيما الفتيان والفتيات ، فسعوا فى إخراجها من مكة ، وكان من آثار ذلك ما قام به أبو الوفاءِ لدى ابن أبى عمار ليشكو أمرها إلى والى البلد .

كانت تلك الليالى القصار التى أحيتها جميلة فى دار ابن سهيل نعمة كبيرة على سلامة إذ استطاعت — وهى مستلقية على فراشها — أن تستمتع بسماع ألحانها التى كانت تترجع فى سكون الليل كأنها نغمات الحور فى قصور الجنان .

لم تنم سلامة ليلتها تلك إلا قليلا بعد منتصف الليل . وكانت تحلم بتلك الأغانى حتى فى نومها . و لم تكد مولاتها توقظها كعادتها مطلع الفجر حتى ترنمت ببعضها خشية أن تنسى ما حفظت منها ، ولكن أم الوفاءِ لم تدع لها ذلك فوجدت سلامة فى خروجها لرعى الغنم

ذلك اليوم فرصة كبيرة لتتغنى فى ذلك المرعى الفسيح كما تشاءُ ، دون ما رقيب .

كان هذا المرعى الفسيح قليل العشب إذ ذاك ، فكان الرعاة فيه يتنقلون لذلك من موضع إلى موضع ، وظهرت سلامة فى ناحية منه وهى تسوق غنمها وتغنى :

ليت هندا أنجزتنا ماتعد … وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة … إنما العاجز من لا يستبد

وكان يسير وراءَها على بعد منها غلام يرعى قطيعا من الغنم سمع صوت سلامة فأخذ يتنصت له من حيث لا تراه . وقال لنفسه : « عجبا هذا صوت جميلة ! ترى من هذه الراعية التى تجيد هذا الصوت هذه الإجادة حتى أكاد أحسبها جميلة نفسها ؟ »

واستمرت سلامة فى غنائها :

ولقد قالت لجارات لها … ذات يوم وتعرت تبترد :
أكما ينعتنى تبصرننى … عمركن الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكن وقد قلن : … حَسن فى كل عين من تود
حسداً حمّلنه من أجلها … وقديما كان فى الناس الحسد

واقترب الغلام من موضع سلامة وهو يكاد يطير من الطرب ، فلم ير

قبلها راعية تتغنى بمثل هذا الغناءِ الرفيع ، وعلى هذا النحو من الإجادة ، وقال فى نفسه : « يالله ! إن فى صوت هذه الجارية لغُنّة عذبة لا توجد حتى فى صوت جميلة » .

وكانت سلامة سائرة على مهل ، وقد استغرقت فى غنائها فلم تنتبه للغلام الراعى الذى كان يسير وراءَها على مقربة منها . وكانت كلما تذكرت بيتا من القصيدة طربت له ، ورددته على مثال اللحن الذى سمعته عليه ، حتى إذا غنت قوله :

« قلت يا هند متى ميعادنا »

لم يتمالك حكيم أن غنى مكملا : « ضحكت هند وقالت بعد غد »

ريعت سلامة لهذا الصوت المفاجىء ، والتفتت وراءَها فرأت الغلام فعجبت كيف يجيد هذا اللحن راع مثله ، على أنها سرعان ما شعرت بأنس إليه ، فما أن ابتسم لها حتى ابتسمت له كأنما قد تعارفا من قبل .

قال حكيم : « لله صوتك يا جارية .. هذا غناءُ جميلة ، من أين أخذته ؟ » .

فقالت : « وأنت كأنى بك تعرف هذا اللحن » .

قال لها : « أجل إنى أعرف كثيراً من أصوات جميلة » .



وكانت سلامـة سائـرة على مهـل ، وقـد استغـرقت فى غنائهـا
فلـم تنتبـه للغـلام الراعـى الـذى كان يسير وراءهـا على مقربـة منها

وما كاد الغلام يقول لها هذا حتى تهلل وجهها سرورا كأنها عثرت على كنز ثمين وقالت : « أحق ما تقول ؟ ألا تسمعنى منها شيئاً » .

فقال لها إنه سيفعل ذلك ، ولكنه يريد أولا أن يعرف من هى وما اسمها ؟

فأخبرته أنها جارية الشيخ أبى الوفاءِ ، وأن اسمها سلامة فقال لها إن اسمه حكيم ، وأخذ يحدثها عن نفسه ، وكان مما قال لها إن مواليه كانوا من أهل المدينة فانتقلوا إلى مكة بضعة أشهر ، وأنه نشأ بالعقيق ، فكان يشهد مجالس الغناءِ فيه .

طربت سلامة لسماع حديث حكيم وقوى اعتقادها بصحة ما ادعاه من معرفة كثير من أصوات جميلة ، فزاد ميلها إليه ، وإقبالها عليه ، وقالت له : « أسمعنى يا حكيم شيئا من ألحان جميلة » .

« إنى لفاعل ولكن خبرينى، أولاً أترعين شويهاتك هنا كل يوم ؟ » .

« نعم يا حكيم » :

« وأنا أيضًا سأرعى غنمى هنا كل يوم » .

وبرمت سلامة بهذه المطاولة من حكيم فقالت فى شىء من الحدة :

« بالله مالنا ولهذا ، أسمعنى من أصوات جميلة أقول لك » .

رأى حكيم برمها فآثر أن يرضيها وقال لها : « سأسمعك لحنا صنعته جميلة فى شعر عبيد الله بن قيس الرقيات ، فهلمى بنا نقعد على ذلك التل و نرسل غنمنا فى أسفله » . وأشار إلى تل صغير إلى يسارهما على أسفله قليل من العشب ، فوافقته سلامة على ما اقترح ومشيا يهشان غنمهما ، وأصعدا فى التل حتى قعدا على منتصف السفح ، وانتشر الغنم يرعى فى أسفله واختلط بعضه ببعض .

بدأ حكيم يغمغم بالغناء وما زال صوته يرتفع شيئًا فشيئا حتى رنّ صداه فى ذلك الخلاء :

« بنفسى منْ لو مر بـرد بنانــه   على كبدى كانت شفاءً أنامله
ومن هابنى فى كلّ شىء وهبته   فلا هو معطينى ولا أنا سائله »

فطربت سلامة طرباً شديداً وما منعها أن تقوم فترقص إلا اجتهادها فى محاولة حفظ اللحن ، وقالت : « أحسنت يا حكيم .. بربك إلا ما أعدته علىّ » .

فأعاد عليها اللحن مرة بعد مرة حتى قالت له : « حسبك يا حكيم .. اسْمَعنى سأعيد اللحن عليك فاردد علىَّ الخطأَ إن أخطأت » .

قال لها : « افعلى ونعيم عين » .

فغنت سلامة : « بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى كانت شفاءً أنامله » .

ثم وقفت عن الغناء وقالت : « تبالى ! لم أحسن اللحن » .

فأعاد حكيم الشطر الثانى وطفق يكرره وهى تكرره معه حتى قال لها : « ها أنت ذى أجدته الآن » . فكان جذلها عظيما .

ونهضا فنزلا من السفح يتفقدان غنمهما ويعيدان ما ند منه وابتعد عن تلك البقعة ، ثم عادا يستبقان إلى مكانهما فى السفح فارتمت سلامة على مقعدها ، وارتمى حكيم قريبا منها ، وأرسلا تنهدا طويلا من تعب الجرى تخالطه ضحكات بريئة كل البراءَة من جانب سلامة — وبسمات من قبل حكيم لاتخلو من معانى الغزل .

وما كاد نَفَسُ سلامة يهدأ حتى طفقت تعيد اللحن وقد ارتفعت عنها محاولة التقليد ، وأرسلت نفسها على سجيتها ، ومدت من صوتها ما شاءَت أن تمد ، ورجعت فيه ما طاب لها الترجيع ، فطرب حكيم طرباً شديداً ، و لم يصدق أنه يسمع اللحن الذى لقنها إياه منذ الساعة ، ونظر إلى الشياه السائمة فى أسفل التل فخيل له أنها قد كفت عن الرعى واشرأبت بأعناقها إلى مصدر ذلك اللحن العلوى البديع ، فما لبث أن صاح فى دهش : « ويل لك ما هذا ؟! » .

وانتبهت سلامة لاختلاف لحنها عن الأصل فقالت : « تبًّا لى ! عدت إلى خطئى » .

قال لها : « كلا والله ما هذا بخطأ .. لقد زدت اللحن بهذا عذوبة ليس فى الأصل .. والله لقد خلقت للغناءِ يا سلامة ، وليكونن لك فيه شأن — وإنما أنت فى حاجة إلى معلم تأخذين الغناء عنه » .

نزلت هذه الكلمات كالطل البارد على قلب سلامة ، لأنها عبرت تعبيراً واضحاً عما لديها من الموهبة الغنائية التى كانت تحس بها إحساساً مبهما ، فلم يبق لديها شك حينئذ فى أنها ستصير مغنية عظيمة إذا وجدت من يأخذ بيدها فى هذا السبيل ، ونظرت إلى حكيم نظرة ملؤها الشكر وقالت : « لكن من لى بذاك المعلم يا حكيم ؟ »

أطرق حكيم لحظة ثم قال لها فى شيء من التردد : « قلت لك إننى أعرف شيئا من ألحان جميلة ، وأزيدك أننى أعرف جملة من ألحان غيرها . فهل لك أن تأخذيها عنى ؟ » .

فلم تتردد سلامة أن قالت : « أفعل يا حكيم ، ولك المنة والفضل » .

رفع حكيم بصره إليها قائلا : « ما جزائى عندك إن علمتك إياها

يا سلامة ؟ » .

فضحكت سلامة وأجابته قائلة : « جزاؤك .. لا أدرى . إنى لا أملك شيئا يا حكيم » . فقال لها : « بل تملكين كل شىء يا سلامة » .

وفطنت سلامة لبعض ما يريد وقالت متجاهلة : « والله رب هذا البيت لا أملك شيئاً » .

قال لها : « لا تقولى هذا وعندك هذا الفم الأرجوانى والثنايا اللؤلؤية ! » .

فاصطبغ خدها بحمرة الخجل وقالت فى لهجة العاتب : تبا لك .. أتريد » .. فبادرها حكيم قائلا :

« قبلة يا سلامة .. أو قبلتين » .

قالت وقد قطبت وجهها : « ويل لك .. بئس ما ربتك أمك يا حكيم ! »

فأجابها مبتسما : « أجل بئس ماربّتْنى أمى .. كانت ــ يرحمها الله ــ كثيراً ما تقبلنى ! » .

فاغربت سلامة فى الضحك ثم كفت عنه فجأة وقالت : « دعنا من هذا .. ألا تعلمنى يا حكيم ؟ »

قال لها : « وتمنحينني القبلة يا سلامة ؟ » .

فسكتت .. ثم نظرت إليه ضاحكة وقالت : « أمنحك إياها » .

فاقترب منها حكيم قائلا : « هاتى فوالله إن المكان لخال » .

فارتدت سلامة قليلا إلى الوراءِ قائلة : « لا .. ليس الآن .. حتى تعلمنى » .

قال حكيم وقد عاد إلى مكانه الأول : « حسناً سأعلمك كل يوم لحناً أو لحنين على أن تعطينى قبلة على كل لحن » .

فأجابته ضاحكة : « قبلت شرطك يا ماكر » .

فابتسم حكيم ابتسامة الظافر وقال : « إذن فهاتى القبلة التى استحققتها عندك باللحن الذى علمتك إياه الآن » .

ولكن سلامة لم تعدم الرد المقنع إذ قالت : « إنك علمتنيه قبل أن نبرم بيننا هذا الاتفاق ، فليس لك أن تطالبنى بشىء بعد » .

قال لها وقد شعر بأنه المغلوب : « ويل لك ما أذكاك ! غداً أستحق لديك قبلا كثيرة ! » . فابتسمت وأجابته قائلة : « غدا يأتى الله بالفرج ! » .

الفصل الخامس

مرت الأيام تترى على حكيم وسلامة وهما يلتقيان كل يوم فى المرعى ، فتأخذ عنه لحنا من الألحان التى كان يعرفها ، حتى استنفدت ماعنده منها ، وظلا بعد ذلك يتطارحان الأغانى السالفة ويعيدانها حتى إذا استقلت الشمس فى كبد السماءِ ، رجعت سلامة إلى البيت فقامت بما عليها من شؤونه .

وكانت فى خلال ذلك كثيرا ماتتأخر عن موعد مجيئها إلى البيت فتعاتبها مولاتها ، فتتنصَّل من تَبِعَتها بعذر من الأعذار تختلقه اختلاقا ؛ وكانت أم الوفاءِ تتسامح معها فى ذلك لشدة حبها لها وتعلقها بها .

وزاد ولوع سلامة بالغناءِ حتى كانت لاتكاد تكف عنه وهى تطبخ الطعام أو تكنس المنزل ، وطالما نصحتها أم الوفاءِ بالكف عن ذلك ، وشددت عليها فيه فلم تكن لتنتصح . وفاجأها أبو الوفاءِ غير مرة وهى تغنى ، فزجرها أشد الزجر ، وتوعدها بالضرب ، فكانت تكف عن الغناء يوما أو يومين ، ولكنها لا تلبث أن تعود إليه . وكان

من جراء ذلك أنه قلما كان يمضى يوم لا يشتد فيه التّلاحى بين أبى الوفاءِ وأم الوفاءِ ، إذ كان يتهمها بالهوادة والتسامح مع الجارية ، وأنها لو قست عليها وأخذت بجانب الحزم فى تأديبها لكفت عن هـذا الباطل .

والحق أن أم الوفاءِ كانت تدافع عنها فى أول الأمر وتنتحل لها الأعذار ، وتَعِدُ زوجها بأن سلامة ستكفُّ عن باطلها ، حتى ضاقت نفسها آخر الأمر حين رأت لافائدة من نصح سلامة ، فأعلنت زوجها بأنها عجزت عن تأديبها وأنها تترك له الحق فى أن يتصرف فى أمرها كما يشاءُ ، فشاورها أبو الوفاء فى أمر بيعها للتخلص منها ، وكان ذلك شديداً على أم الوفاء لحبها لسلامة ، ولكنها لم تجد عذراً تعترض به على هذا الرأى فرضيت به على كره .

رجعت سلامة من المرعى ذات يوم وبيدها عصا تسوق بها غنمها ، ودخلت البيت فأفضَت إلى صحن متوسط يقع على يمينه مطبخ فيه أثافىّ من الحجارة ، وتُرى معلقة على الحائط بعضُ القدور النحاسية والجفان الخشبية وغيرها من الأوانى . وفى الجانب الآخر من المطبخ تقع رحى المنزل التى تطحن فيها الحبوب ، وعلى يسار الصحن مربض تأوى إليه الغنم له باب صغير .

ذكرت سلامة الغناءَ وهى تدخل الغنم فى المربض فأنشأت تقول لنفسها : « ويلى أظننى نسيت لحن اليوم » . ثم طفقت تزمزم بالغناءِ :

رُقَـىَّ بعيشكـم لا تهجرينـا   وَمنِّينـا المنـى ثم امطلينـا

ونزلت إليها حينئذ أم الوفاء من الطابق الأعلى ، فلما وقع بصرها عليها قالت لها : « أصبحت تتأخرين كل يوم يا سلامة » .

فأجابتها سلامة قائلة : « ذلك لأنى أذهب إلى المرعى البعيد » .

قالت لها العجوز : « لِمَ لا تختارين المراعى القريبة ؟ » .

« لأن المراعى القريبة لم يَعدْ فيها كلأٌ » .

« هيا أدخلى الغنم وأسرعى بطبخ الغداءِ » .

فسرِّىَ عن سلامة إذ وقف عتاب العجوز عند هذا وقالت : « سمعا يا مولاتى » . وكأنما رق قلب العجوز لها إذ سمعت هذا الجواب الناعم فقالت : « هداك الله يا بنية . أوقدى النار وسآتيك بقطعة اللحم . إن أبا الوفاءِ اشترى لنا لحما هذا اليوم » .

« وليس عندنا ضيف يا مولاتى ؟ » .

« لا ليس عندنا ضيف » .

« إذن وفرى لى نصيبى من اللحم فإنى لم أذقه فى المرة السابقة » .

فضحكت العجوز وقالت : « ولا أنا يا سلامة .. إن الضيف لم يترك لنا شيئاً » . قالت ذلك وخرجت من باب الصحن لتصعد إلى الطابق الأعلى .

وخرجت سلامة من المربض حاملة بيدها مركنا فملأته ماء من زير كبير فى الصحن ، ثم أعادته إلى المربض ليشرب منه الغنم وأوصدت الباب عليه . وذهبت نحو المطبخ فأخذت تشعل النار بقدح الزناد على رقيق سعف النخل اليابس وهى تترنم :

رُقىَّ بعيشكم لا تهجرينا وَمنِّينا المنى ثم امطلينا
عدينا فى غدٍ ما شئت إنا نحبُّ . وإن مطلت . الواعدينا !

وكانت العجوز قد عادت فى هذه اللحظة وبيدها قفَّة اللحم فوقفت على باب الصحن تنصت للغناء معجبة به ، ولكنها كتمت إعجابها وظهرت فى صورة الغاضبة ودخلت وهى تقول : « جميل والله يا سلامة ! هذا غناء جديد أتيت به اليوم . بودّى والله أن أعرف من هذاالشقىالذى يعلمك كل يوم لحنا جديدا » .

فبادرتها سلامة قائلة : « لا أحد .. إنما سمعته فى طريقى إلى المرعى فحفظته » .

قالت العجوز مغضبة : « أما تنتهين عن مزامير الشيطان هذه —

ألم يكفك ما عاقبك عليه مولاك ؟ » . فأجابتها سلامة قائلة : « إنني لا أستطيع أن أقوم بعملي صامتة كالحائط ! » .

قالت العجوز : « أما علمتُك سوراً من القرآن فلم لا تقرئينها بدلا من هذا الغناء الباطل ؟ .. اقرئ ما تيسر منها حتى إذا سمعك مولاك سرَّ منك ، فوالله لو جاءَ مولاك على غِرّة وسمعك تغنين بعدُ ليضربنك ضربا شديدا وليغضبنَّ على لأنى لا أكفك عن هذا اللغو » .

صمتت سلامة هنيهة وهى تضع القدر على النار وترمى فيها اللحم ثم قالت : « خيرا يا مولاتى سأقرأُ شيئا من القرآن — سأقرأ والضحى » .

فسرت العجوز لقولها وقالت : « افعلى بارك الله فيك » وقعدت على دكة المطبخ تقشر ثوماً بيدها تساعد بذلك سلامة .

وشرعت سلامة تقرأ وهى ترمى الحطب على النار : « أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم . بسم الله الرحمن الرحيم » . وسرعان ما استحال صوتها ترجيعاً وغناء وهى تتلو : والضحى والليل إذا سجا . ما ودَّعك ربك وما قلى . وللآخرةُ خيرلَكَ من الأولى ..

فقاطعتها العجوز قائلة : « قد قلتُ لك مراراً أن لا تقرئى القرآن على هذه النغمة » . فغضبت سلامة وقالت : « كيف أقرؤه إذًا ؟

والله لقد حِرْتُ فى أمركم لا أدرى كيف أرضيكم ! » .

وكأن أم الوفاء شعرت أن موقفها من هذه الجارية لا يخلو من التعنت فقالت لها فى رفق : « اقرئيه كما أقرأتُك إياه يا سلامة .. اقرئى هكذا : والضّحَى والليل إذا سجا . ماودَّعك ربُّكَ وما قلى . وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى .. أفهمت ؟ » وتكلفت سلامة الجواب قائلة : « نعم فهمت » .

رأت أم الوفاءِ أن قد بَعلَتْ بأمر الجارية وأن الخير أن تتركها وحدها تقرأ كما تشاءُ فحسبها أنها تقرأ القرآن ، وكانت قد انتهت من قشر الثوم ، فوضعته فى طَبَق أمام سلامة ، واكتفت بأن أوصتها أن لاتكثر فى المرقة من الملح وأن تنضج اللحم جَيّدًا لمولاها الشيخ وانصرفت دون أن تقول لها شيئًا آخر .

وعادت سلامة فقرأت كما تحب مولاتها أن تقرأ : « والضُّحَى والليلِ إذا سجا . ماوَدَّعكَ ربُّك وما قلى . وللآخرةُ خيرٌ لك من الأولى » .

وما أتمت هذه الآيات الأولى من السورة حتى عادت من حيث لا تقصد إلى نغمتها الغنائية الأولى ، وذلك حين أخذت تقرأ : « ولسوفَ يعطيكَ ربُّك فترضى . ألم يجدْكَ يتيما فآوى . ووجدك

ضالا فَهدَى . ووجدك عائلا فأغنى » ..

وطفقت تكرر هذه الآيات على نحو ما تصنع بالشعر وتذهب بها مذهبه ، واتفق فى خلال ذلك أن جاء أبو الوفاءِ من الخارج فسمع غنَاء ثم مالبث أن تبين له أنه قرآن يتلى ، فقال فى نفسه : « سبحان الله ما هذا ؟ أتلاوة أم غناء ؟ » .

ووقف على عتبة باب الصحن يستمع إلى سلامة وهى تتلو : ﴿ فأمَّا اليَتيمَ فلاَ تقهرْ ، وأما السائِلَ فلاَ تنْهَرْ ، وأمَّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .

فثار ثائره وضرب الأرض بعصاه ، ودخل الصحن مغضباً قائلا : « ويل لك يا فاعلة ! علَّمناك القرآن لتنتهى عن الغناءِ ، فذهبت تتغَّنيْن بالقرآن .. أين أم الوفاءِ ؟ » .

ارتاعت الجارية فجمدت فى مكانها لا تنبس ببنت شفة .

واستمر الشيخ يصيح مزمجرا وينادى : « أمّ الوفاء .. يا أمّ الوفاء ! » .

وأجابت أم الوفاء من أعلى « نعم » ، وهبطت بسرعة وأقبلت ترعد فرائصها وهى تقول : « ما بالك ؟ » .

— ما بالى ؟ ألم تسمعى هذه الخبيثة تقرأ القرآن كأنها تتغنى بأبيات

الشعر ؟ هذه هى القراءة التى تعلَّمتها منك ؟ » .

فوجئت العجوز بهذه اللهجة القاسية من زوجها فاستشاطت غضبًا وقالت : « أوَأعترفُ أنا بالغناء فأعلمها إياه ؟ أما تتروَّى يا رجُلُ فى كلامك فتقول خيرا أو تصمت ؟ » .

وشعر الشيخ الصالح أن قد غلبت عليه الحدَّة ، فألان من لهجته قائلا : « وفيم لم تزجريها عن هذا العبث ؟ » .

« وماذا عساى أن أصنع ؟ لقد نهيتها عن هذا مراراً فلم تنته ، إن شيطان الغناء يتلاعب برأسها وليس فى وسعى أن أطرد الشيطان » .

« لكن فى استطاعتى أن أطرد هذا الشيطان من رأسها أو أرمى هذا الرأس خارج البيت ؟ » .

قال الشيخ هذا ونظر إلى وجه الجارية كأنه صحيفة بيضاء ، واضطربت سلامة من الخوف فتشاغلت بالطبخ ، واقترب منها قائلا : « يا بنية إنْ أبى لك شيطانك إلا أنْ تُغنِّى فغنِّى بكلام الغاوين من الشعراء .. ولكن حذار أن تصنعى ذلك بكلام رب العالمين ، أتسمعين ؟ . » .

فأجابته سلامة بصوت خافض : « نعم يا مولاى » . وانفجرت باكية .

وخرج أبو الوفاء فصعد ، وبقيت أم الوفاء عند سلامة فلما رأتها تستخرط فى البكاء دمعت عيناها ، وانحنت عليها تواسيها ، فأنِستْ إليها الجارية ومالت برأسها على حجرها ، وما زالت العجوز بها تسلِّيها وتمسح على رأسها وظهرها حتى سُرِّى عنها فقامت إلى عملها .

ولبثت العجوز تلاطفها وتداعبها قائلة لها : « لا تبتئسى يا بنية ، لا ضيف عندنا اليوم ، فسأوفر لك نصيبك من اللحم » . حتى ضحكت سلامة وما تزال فى مآقيها آثار الدمع .

صعدت أم الوفاء إلى زوجها بعد أن اطمأن قلبها على جاريتها ، فما أقبلت عليه حتى قال لها : « لقد أتعبتنا هذه الجارية ، والله لأبيعنَّها ولو بدرهم ! » .

فلم تجبه أم الوفاء بشىء فاستمر قائلا : « لقد بعث إلى ابن سهيل يرغب فى شرائها ويعطى بها ثمنًا كبيرًا ، ولولا معرفتى أنه إنما رغب فى ابتياعها ليتخذها مغنية لبعتها له » .

صمتت أم الوفاء هنيهة ثم قالت : « وماذا عليك منه ؟ إن لم يكن لك بدٌّ من بيعها فبعها له وليصنع بها ما يشاءُ » .

فقال لها : « أخشى إن فعلتُ أن أكون معينا على هذه المعصية » .

قالت : « لا يحاسب الإنسان إلاَّ على ما نوى . وماذا عساك تفعل غير هذا ؟ إنها خُلقَت مغنية وستنشأ مغنية شئت أم أبيت » .

الفصل السادس

مرت ثلاثة أعوام على هذه الحوادث توفيت فى أثنائها أم الوفاء من مرض طال بها على أثر فراقها لسلامة التى باعها زوجها لجاره السرى ابن سهيل .

ووهنت قوة الشيخ أبى الوفاء وانتابته أمراض الشيخوخة العالية فكانت كثيرًا ما تقعده عن شهود الجماعة فى المسجد ، إلا أنه كان صابراً محتسبًا لله لا يشكو ولا يتألم ، وكان يجد الأنس فى رؤية أصدقائه الصلحاء الذين كانوا يختلفون إليه ، ويعودونه إذا مرض ، ويصحبونه إذاوجد فى نفسه نشاطًا للخروج إلى المسجد . وكان من أشد هؤلاء اتصالا به وأكثرهم ترددًا عليه صاحباه الكهلان وصديقه الشاب عبد الرحمن بن أبى عمار .

لم يطرأ على عبد الرحمن من شىء جديد فى خلال الأعوام الثلاثة ، فكانت حياته تمر على وتيرة واحدة على نحو ما تقدم وصفه ، فمن البيت إلى المسجد ومن المسجد إلى البيت ، لا يعرف غيرهما إلا أن

يذهب إلى بيت أبى الوفاء يعوده أو يزوره ، أو أن يخرج إلى ضيعته فى ضاحية مكة يتعهدها .

أما سلامة فقد تبدلت حياتها ، وتغيرت عما تركناها عليه فى الفصل السابق منذ اشتراها ابن سهيل ، فوجدت عنده البيئة الصالحة لنمو مواهبها وأداءِ وظيفتها فى الحياة ، فقد عنى بتعليمها عناية كبيرة ، ووكل بها جماعة من الشعراء والمغنين والعازفين ، فتعلمت الكتابة ولقنت فنون الشعر ، وحذقت العزف على العود وغيره من آلات الطرب .. وحظيت عند مولاها السرى الطروب وشغف بها شغفًا عظيما حتى كان لا يصبر عنها ساعة . وكان يعقد لها مجالس الغناءِ فى داره فتشهدها الطبقات المختلفة من الشعراء والمغنين ومحبى الشعر والغناءِ .

خرج عبد الرحمن بن أبى عمار ذات يوم إلى المسجد لشهود صلاة الصبح كعادته ، فلما انتهى من الصلاة وأخذ فى الدعاء تذكّر الحلم الذى رآه فى منامه الليلة البارحة فامتلأ قلبه رعبًا ، وقال : « اللهم إنى أعوذ بك أن تضلنى بعد الهدى » . وتلا المعوذتين ثم قال : « اللهم اجعلها أضغاث أحلام » .

والتمس أبا الوفاء فى الموضع الذى يصلى فيه فلم يجده ، ووجد

صاحبيه الكهلين فحياهما ثم سألهما عنه فعلم منهما أنه مريض ، وأنه لم يشهد الجماعة منذ يومين ، فاعتزم عبد الرحمن أن يعوده ذلك اليوم .

فلما عاده وجده مضطجعًا على فراش على الأرض وعنده عبد أسود يقوم بخدمته فسلم عليه فرد عليه السلام ورحب به ، وأراد أن يجلس له فلم يدَعْهُ عبد الرحمن يفعل ذلك ، وقعد على الحصير إلى جانبه وهو يقول : « لا بأس عليك أبا الوفاء ، شفاك الله وعافاك ! » .

فأجابه الشيخ بصوت خافض قائلا : « لا أراك الله بأسًا يا عبد الرحمن ، إنى لا آسف عن شيء يا بنى إلا على شهود الجماعة » .

« كيف تجدك اليوم يا عم ؟ » .

« أجدنى بارئا بنعمة الله يا بنى .. إن جسم المرءِ ليعتل فيشفى ، وإنما الطامة الكبرى أن تمرض الروح » .

وكان لكلمة الشيخ هذه وقع خاص عند أبى عمار فاضطرب وقال : « صدقت يا عم ، لقد ذكرتنى كلمتك هذه حلما رأيته البارحة ملأ قلبى رعبًا ، وشغلنى همه طوال وقتى » .

« ماذا رأيت يا بنى ؟ » .

« رأيت كأنى كنت فى الجنة إذا بصوت جميل آت من خارج باب الجنة ، فانطلقت لأستمع إليه وخرجت إلى الأعراف ، حتى إذا اقتربت من الجانب الآخر ممَّا يلى النار بَصُرت على شفيرها بامرأة كأجمل ما رأيت من النساء ، محلولة الشعر ، عارية إلا ما يستر وسطها ، وفى يدها اليسرى مزمار ، فلما رأتنى فزعت إلى كأنما تعرفنى من قبل ، وطوقتنى بيدها اليمنى وتشبثت بعنقى وهى تصيح : « عبد الرحمن أنقذنى ! عبد الرحمن أغثنى ! » . وسُدًى ما حاولت الإفلات من قبضتها فأخذت أجذبها إلى جهة الجنة وهى تنجذب إلى جهة النار ، حتى وقفنا معًا على شفير الهاوية ، فارتعت لهول منظرها ، فانتبهت على صوت المؤذن بصلاة الفجر ! » .

ولم يكد عبد الرحمن يتم حديثه حتى هب أبو الوفاء كأن قوة أعانته فاستوى جالساً ، ولبث هنيهة صامتًا كأنه يدير فى ذهنه هذه الرؤيا الغريبة ثم قال : « ما أرى هذا الحلم إلا من الشيطان فاستعذ بالله منه ولا تقصصه على أحد ، فقد بلغنا عن النبى ﷺ أنه قال :

« من رأى رؤية لا تسرُّهُ ، فليتعوذ بالله ولا يقصصها على أحد فإنها لا تضره » .

فقال عبد الرحمن : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

وعاد الشيخ للحديث فقال : « لاتَخَفْ يا بنى فلن يجد الشيطان إليك سبيلا ، إنك لشاب مبارك مجتهد فى طاعة الله ما عرف الناس فيك إلا الخير . إنه الشيطان يابنىَّ تمثَّلَ لك فى صورة امرأة زمَّارة ليفتنك عن دينك » .

« ويل لى ! صبوت إلى غنائه وخرجتُ من الجنة .. وايْمُ الله لقد هلكت ! » . قال هذا عبد الرحمن وانتظر ماذا عسى أن يقول أبو الوفاءِ فى تأويله هذا .

وفكر الشيخ قليلا ثم قال : « لا تخْش سُوءًا ياقَس .. ألم تقل لى إنك كنت فى الجنة ؟ . وإنه يا بنى من دخل الجنة لا يخرج منها » .

« جزاك الله صالحة يا أبا الوفاء ، لقد هدَّأت روعى وبشّرتنى بشرك الله بالخير » .

فحرك أبو الوفاء رأسه وقال وقد جلَّلت وجهه غاشية من الهم : « إنك يا بنى فزعت من رؤيا النار ، فما قولك فى أناس يشهدون أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله يغرقون فيها إلى آذانهم وهم مستبشرون ؟ هذا جارنا ابن سهيل — غفر الله له وتاب عليه — يقضى ليله ونهاره فى مزامير الشيطان ، ومسامرة أعوانه من الشعراء الغاوين ، والقيان والمغنين ، ينفق عليهم من ألوان الطعام والشراب

ما لو أنفق بعضه على فقراء مكة وأراملها وأيتامها لدخل الجنة من أى أبوابها شاءَ » ..

وطفقت الدموع تتحادر من عينيه وهو يقول : « غفرانك يا إلهى غفرانك ! » .

فتعجب عبد الرحمن من بكاء الشيخ فسأله : « ما يبكيك يا أبا الوفاء !! » .

قال أبو الوفاء وهو يمسح الدمع من عينيه : « أخشى أن أكون أعنته على معصية الله يا بنى » .

فازداد عجب عبد الرحمن وقال له : « معاذ الله .. كيف ذلك يا أبا الوفاء ؟ » .

فقص عليه الشيخ حديث جاريته سلاّمة ، فقال له عبد الرحمن : « خفِّضْ عليك يا عم .. إنك غير مسئول عن عمله » .

« لكنى كنت أعلم أنه سيفعل ذلك » .

« يغفر الله لك يا أبا الوفاء ، إن الله لأرحم من أن يؤاخذك على جريرة سواك » .

« ذلك الظن بالله يا بنى وهو خير الغافرين » .

واستأذن عبد الرحمن فى الانصراف فودعه أبو الوفاء شاكراً ،

وأوصاه أن لا يغب زيارته لأنه يأنس بقربه ، فوعده عبد الرحمن بذلك وانصرف .

خرج عبد الرحمن من بيت أبى الوفاء ومشى متمهلا فى الطريق يفكر فيما قاله للشيخ ، وما قاله الشيخ له ، وذكر كلمته عن جاره ابن سهيل ، فصوب نظره إلى حيث يقيم هذا الجار الذى شقى صاحبه بقربه وجواره ، فرأى دارًا فخمة على ثلاث طبقات ، يحيط بها بستان واسع عليه سور قصير تظهر منه رءوس أشجار النخيل والسِّدر ، ورأى فى الجانب الأقصى من البستان المشربة التى يستقبل فيها ابن سهيل ضيوفه ، ويجالس ندماءَه من المغنين والشعراء .

مشى عبد الرحمن بجانب السور فسمع صوتًا كالغناءِ آتيا من قبل المشربة الواقعة فى أقصى السور ، وكلما اقترب منها ومن باب السور المفضى عليها زاد الصوت ارتفاعا ووضوحًا ، وإذا به يغنى :

إذا وجدْتُ أوار الحُبِّ فى كَبدى   ذهبت نحو سقاءِ الماءِ أبتردُ !
هَبْنى بَرَدْتُ ببرد الماءِ ظاهـرهُ   فمنْ لنار على الأحشاءِ تتقدُ ؟

وإذا برعدة تسرى فى مفاصل عبد الرحمن ، وإذا به يتَّاقل فى مشيته وهو يقول : « عجبا ما أشبه هذا الصوت بصوت المرأة التى رأيتها فى الحلُم .. لله ما أعذبه .. إن له لحلاوة فى قلبى » .

وانتبه فجأة إلى موقفه فتكلف الإسراع فى المشى وهو يقول : « أعوذ بالله من فتنة الشيطان » . حتى إذا حاذى باب السور برز ابن سهيل من الباب ، وكان قام ليتفقد ضيوفه القادمين إليه ذلك اليوم من المغنين والشعراء ، فأبصر عبد الرحمن يحدر فى مشيه ، فعرفه فاستوقفه قائلا : « مهلا يا بن عمار ، ألا تُسلم علينا ؟ » .

فالتفت إليه عبد الرحمن ، وكان يعرف ابن سهيل من قبل وكثيرًا ما رآه فى المسجد ، فقال : « السلام عليك يا بن سهيل » .

فأجابه ابن سهيل ووجهه يتهلل من البشر : « وعليك السلام ورحمة الله ، أهلا بك يا بن أبى عمار » . وأقبل إليه يصافحه قائلا : « كيف أنت يا قسّ ؟ » .

« بنعمة الله يا بن سهيل » .

« من أين يا بن أبى عمار ؟ » .

« من عند أبى الوفاء أعوده » .

فظهر التأثر على وجه ابن سهيل وغاضت ابتسامته قليلا وقال : « عجل الله بالشفاءِ لأبى الوفاء ، لقد بلغنى أنه اعتلّ ، ولولا خشيتى أن يضيق بمقدمى لعدتهُ ، فوالله إنى لأحبُ هذا الرجل الصالح قدر ما يبغضنى هو » .

ففرح عبد الرحمن فى سره بهذه الصدفة التى لم يتوقعها ، ورأى أن ينتهز هذه الفرصة السانحة ليكلم ابن سهيل فى صالح أبى الوفاء ، وينصحه بالكف عن إزعاجه بأصوات الغناءِ ورنات العيدان ، فقال له : « أما إنه لعلى حق فى بغضك . لقد شكا إلىَّ أنك تزعجه بغنائك وقصفك وتشغله عن تلاوته وصلاته » .

فقال ابن سهيل بصوت يندى بالعطف : « والله يا بن أبى عمار ليشق على أن يتأذى منى هذا الجار الصالح ، ولقد والله بنيت هذه المشربة الجديدة التى تراها فى هذا الجانب القصى من الحديقة لأبتعد بها عن داره فلا تصل إليه أصوات الغناء » .

« لقد أحسنت بهذا يا بن سهيل صنعاً ، وحبذا لو تحسن إلى نفسك فتقلع عن اللهو والغناءِ جملة فتستريح وتريح » .

فتبسم ابن سهيل وقال : « ياليت ذلك فى استطاعتى يا بن أبى عمار ، ولكنى امرؤ ابتلى بهذا اللهو فما يستطيع أن يعيش بدونه . آه ياقس أحسبنى قد أستغنى عن الغذاء ولا أستغنى عن الغناءِ » .

فحرك عبد الرحمن رأسه قائلا : « ما أشدَّ جنونكم أرباب اللهو .. أسأل الله لك الهداية والتوبة يابن سهيل » .

فقال ابن سهيل بصوت خاشع : « اللهم آمين » .

وتهيأ عبد الرحمن للمشى فقال له ابن سهيل : « إلى أين يا بن أبى عمار ؟ » .

قال عبد الرحمن : « إلى المسجد » .

قال ابن سهيل : « ليس الآن يابن أبى عمار .. لم يحنْ وقتُ الظهر بَعْدُ .. هلم معى إلى المنزل فليس من الحق أن تمر بباب منزلى ولا تعرج عليه .. اشهَدْ مجلسنا اليوم فسيجتمع عندى طائفة من فحول الشعراء يتساجلون ، وستسمع إن شئت من جاريتى سلامة غناءً لم تسمعه فى حياتك » .

فقال عبد الرحمن وهو يهم بالمشى : « ولن أسمعه إن شاءَ الله » .

فجذب ابن سهيل رداءَ صاحبه برفق وقال : « كلا ياقس لا تبرحِ مكانك حتى تدخل منزلى » .

فَحرِج عبد الرحمن وقال بصوت فيه حدة : « أتدعونى إلى اللهو والغناءِ يابن سهيل ؟ » .

« لا يابن أبى عمار . لك علىَّ أن لا يرتفع صوت بالغناءِ ما بقيت عندى فى المنزل » .

« شكراً لك يا بن سهيل ، إنك تعلم أنى أكره هذه الجماعة من مُجّان الشعراءِ والمغنين ، وأضيق برؤية وجوههم التى عليها غبرة

الفسوق والعصيان »

وَسُمِعَتْ جلبة من خلف السور فعلم ابن سهيل أن ضيوفه قد قدموا ، فقال لعبد الرحمن : « ها قد أقبل القوم فهلم يابن أبى عمار ».

فقال عبد الرحمن : « دعنى أنصرف يابن سهيل » .

ولم يكد عبد الرحمن يتم كلمته حتى ظهر أحدهم ، فقال ابن سهيل وهو يتبسم : « هذا عمر بن أبى ربيعة شاعر قريش » .

فظهرت الكراهية فى وجه عبد الرحمن وقال : « تبًا له من فاجر » .

وما لبث عمر أن دنا منهما فقال : « السلام عليكم » .

فأجابه ابن سهيل باشًا : « وعليك السلام ياعمر .. أين بقية القوم ؟ » .

فنظر عمر خلفه قائلا : « هم أولاء آتون على أثرى » .. ثم ابتسم ابتسامة ماجنة وقال : « وعَجِلتُ إليك لتكون لى النظرة الأولى فى وجه سلامة ! » .

والتفت إلى الشاب الواقف أمام ابن سهيل فضحك وقال : « هذا عبد الرحمن بن أبى عمار — ماجاءَ بك هنا ؟ أتريد أن تشكونا

إلى الوالى كما فعلت من قبل ؟ » .

فضاق عبد الرحمن صدراً وقال : « ما تزال يا عمر سادرًا فى إثمك وفجورك وتشبيبك بالمحصنات حتى يصيبك الله بقارعة من عنده » .

لم يكن من عمر إلا أن رفع رأسه مقهقهًا ، ثم تنهد ونظر إلى عبد الرحمن قائلا : « آه ياقس ، وهل أنا إلا فى قوارع العذاب ؟ غفر الله لبنات حواء لقد تركن قلبى أشلاءً ؟ » .

وظهر عند ذلك الأحوص والعَرْجىّ الشاعران ، وخلفهما الغريض ومعبد المغنيان ، فقال عمر : « ها هم القوم قد أقبلوا يابن سهيل ! » .

وطفق الأحوص والعرجى يتغامزان ، يقول أحدهما لصاحبه : « انظر هذا عبد الرحمن القس ، هلُمَّ نتندر عليه ونغضبه » . فضحك الآخر وقال : « هلم ! » .

وأقبل الأربعة فسلموا ، فرد عليهم السلام . وصاح العرجى قائلا : « هيا بنا إلى الشراب يابن سهيل .. ما أنتم والوقوف هنا ؟ » .

والتفت إلى عبد الرحمن كأنه لم يعلم بوجوده هناك من قبل

فقال : « أهلا يابن أبى عمار . ما هذا ؟ هل أصبحت اليوم من مذهبنا ؟ » .

فنظر ابن سهيل إليه نظرة العاتب فأمسك .

وقال عبد الرحمن : « ويل لك يا عرجى ، أما تكف عن مجونك ؟ لبئس ما خَلَفْتَ جدك عثمان بن عفان » .

فقال العرجى بلهجة يخالطها الجد : « وماذا تنتظر منى أن أفعل يا عبد الرحمن ؟ إن بنى عمنا استأثروا بالأمر من دوننا ونحن أولى به ، وأقصونا عن الولايات فلا أقل لمثلى من أن يلهو كما يلهو الشباب » .

ثم طفق يترنم قائلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر !

فهز عمر رأسه قائلا : « مطالبٌ بالخلافة جديد ورب الكعبة ! » .

وتأفف الأحوص فصاح : « أنحن فى يوم شراب أم فى يوم مواعظ ؟ ألهذا دعوتنا يابن سهيل ؟ » .

فالتفت إليه عبد الرحمن قائلا : « ويل لك يا أحوص .. ما كان أجدر أن تتبع سنة سلفك من صالحى الأنصار » .

فتنهد الأحوص وقال : « تذكرون الأنصار وقد ظلمتموهم

مرتين . إن لى إذا شرب العرجى كأسًا واحدة أن أشرب كأسين أغرق بهما آلامى » .

فقاطعه عمر قائلا : « وأنت أيضًا يالُكَع ! ويلها مهزولةً يسومها أمثال هؤلاء ! » .

واستمر الأحوص فى حديثه قائلا : « رحم الله سعد بن عبادة .. قتلته قريش وقالت قتلته الجن !! » . ثم أخذ يقهقه وهو يقول : « دعنى يا بن أبى عمار أشرب فآخذ بثأرى من الجن ! » .

فنظر إليه عبد الرحمن ساخطًا وقال : « أمثلك يثأر للأنصار يا هذا ؟ ألست الذى هجوتهم فى شعرك ؟ » .

قال الأحوص : « بلى .. هجوتهم لأنهم ذلوا لقريش . وما كان لهم أن يذلّوا » .

فقال عمر : « إذا مات الأكفاءُ كثر الأدعياءُ » .

وكأنما عز على الغريض أن لا يشترك فى الحديث وخشى أن يسبقه معبد إليه ، فقال يخاطب عبد الرحمن : « إذا كنت لا تحب الغناءَ ياقس ، فانصرف عنا ودعنا وشأننا » .

فثار ثائر عبد الرحمن وقال له : « قطع الله لسانك ! هل جئت أستضيفك يا مخنَّث فتأمرنى بالانصراف ؟ » .

فأجابه الغريض قائلا : « اذهَبْ ذهب الله بك ! » .

فنظر إليه ابن سهيل عاتباً وقال : « مَهْ يا غريض .. إن ابن أبى عمار لا يريد بنا إلا الخير » .

فقال عبد الرحمن : « سامحك الله يا بن سهيل .. أخَّرتنى عن المسجد وشغلتنى بجماعتك هؤلاء » . وانصرف مسرعا و لم يزد .

ووقف القوم صامتين ينظرون إلى الشاب وهو يسرع الخُطى مولياً ، حتى فضَّ مَعْبد ذلك الصمت بقوله :

« سباكم الله ! لقد أغضبتم الرجل . إنه والله لخير منا » .

فقال عمر : « أجلْ والله إنه لخير منا .. هيَّا بنا يا بن سهيل » .

وصمت ابن سهيل لحظة ثم قال : « هيا بنا » وتقدم إلى باب السور وتبعه القوم فدخل ودخلوا معه .

الفصل السابع

تردد اسم عبد الرحمن بن أبى عمار . وتكرر الحديث عنه فى مجلس ابن سهيل بعد ما كان منه ذلك اليوم خارج السور ، وما جرى بينه وبين ندمائه من الحوار . وكأنما شاق خبره سلامةَ بوجه خاص فكانت تُصغِي لما يقال عنه ، وتتتبّعه باهتمام . ولعل لصلته بمولاها السابق وصداقته له سببًا فى اهتمامها بأمره ؛ إذ كان ذلك يثير فى نفسها ألوانًا من ذكرى طفولتها التى قضتها فى ذلك البيت الصالح بين حدب مولاتها العجوز وعطفها عليها ، وبين عناية مولاها الشيخ بأن يجعل منها جارية صالحة على رغم ما كان يضطرب فى صدرها من نزعات الفتون ووساوس الهوى .

و لم تنس ما لقيت فى ذلك البيت من العنت الشديد من جرّاء حبها للغناءِ وميلها إليه ، حتى نقلها الله منه إلى كنف مولاها الجديد — هذا الكنف الذى تسرح فيه وتمرح متمتعة بحب مولاها السَّرِى الذى حقق لها ما كانت تصبو إليه من النبوغ فى الغناءِ حتى علا كعبها فيه .

ولكنها مع ذلك كانت لا تذكر ذلك العهد السالف إلا بالخير ، فكانت تترحم على أم الوفاء التى قضت نحبها على أثر فراقها لها ، وتشفق على أبى الوفاء وقد أصبح وحيدا وانتابته أمراض الشيخوخة ، وتحنُّ إلى أيامها الجميلة فى المرْعى حيث كانت تلقى حكيما فيغنى لها الألحان فتأخذها عنه . ولا تزال تذكر تلك الألحان وتميل إلى التغنى بها ، وتجد لذلك لذة خاصة على بساطتها وقلتها بالنسبة لما حذقته بعد ذلك من فنون الغناء وضروب التوقيع .

ولم تعرف من أمر حكيم بعد ذلك شيئا كأنما كان طيفا عابرا أراها فردوس الغناء ، ووضع فى يدها القبس ثم اختفى !

وكان ابن سهيل لا يفتأ يتحدث عن ابن أبى عمار ، ويود لو يراه مرة أخرى فيدعوه إلى داره ، ويتحدث إليه ويعتذر له عما بدر منه ومن أصحابه فى حقه ؛ فكان يترقب مروره تحت داره فى طريقه إلى بيت أبى الوفاء ، وأوصى سلامة أن تترقبه أيضا حتى إذا لمحته أنبأته به .

وأقبل عبد الرحمن فى صباح اليوم الرابع ليعود صاحبه الشيخ ، فما لمح دار ابن سهيل مِنْ بعد حتى عادت إليه ذكرياتُ ذلك اليوم الذى لقى فيه وجوه أولئك الخلعاء الماجنين ، فخشى أن يلقاهم مرة

أخرى فأراد أن يسلك طريقا آخر إلى بيت أبى الوفاء لا يمر فيه بباب المشربة الذى لقيهم دونه . وتذكر ذلك الصوت الجميل الذى سمعه ذلك اليوم فبقى عالقا بقلبه ، فشعر برغبة خفية فى أن يسمعه مرة أخرى ، ولكنه قمعها بشدة ودار حول السور من الجانب الآخر ليتجنب المرور بباب المشربة ، ولكن دار ابن سهيل لم تختف من عينيه ، فقد كانت لعلوّها تشرف على الجوانب كلها ، و لم يكد يقترب منها حتى سمع الصوت عينه فعرفه وارتاحت نفسه إليه ، و لم يكن الصوت فى هذه المرة عاليًا كما كان فى المرة السابقة ، إلا أنه كان من الوضوح بحيث تبين له أنه يقول :

تُنيــلُ نَــزْرًا قليــلا وهــى مشْفقــةٌ
كما يَخَــافُ مَسيسَ الحيَّــةِ الفَـــرِقُ
لا أعتـقَ الله رقــّى مــن صبابتكـــم
مـاضرّنى أنّنــى صبٌ بكــم قلِـــقُ »

فلم يسع عبد الرحمن إلا أن يتمهل فى خطوه وهو يقــول : « سبحان الله ما أعجب ! » .

و لم يعلم عبد الرحمن أن ابن سهيل كان قد لحظه من الدار على بعد ، ورآه لما دار حول السور ليسلك الطريق الآخر ، فأوعز إلى

سلامة أن تغنى هذه الأبيات حين اقترب عبد الرحمن من الدار ، وأخذ هو يترصده من شباك الغرفة ليرى ما يكون من أمره عندما يسمع الغناءَ ، فاشتد عجبه إذ رأى الشاب الناسك يتمهل فى خطوه ويتصنت للغناءِ ، فالتفت إلى سلامة ضاحكا وقال لها : « استمرى فى غنائك .. هذا القس يستمع إليك .. سأخرج له .. » . قال ذلك ونزل مسرعا ، وقامت سلامة حتى دنت من الشباك تنظر منه والعود فى يدها وهى تغنى :

يتوق قلبى إليكم كى يلاقِيَكم   كما يتوقُ إلى مَنْجاتهِ الغَرِق !

فأخذ عبد الرحمن بالصوت ووقف من حيث لا يشعر فى محاذاة الدار ، فخرج إليه ابن سهيل ففاجأه على حاله هذا ، فاضطرب عبد الرحمن وتظاهر بالسير ، ولكن ابن سهيل انطلق إليه قائلا : « رويدًا يا بن أبى عمار ، لقد رأيتك تستمع إلى غناء سلامة ، فهل لك أن تدخل فتسمع ؟ » .

فأجابه عبد الرحمن وهو يحاول إخفاءَ الاضطراب البادى عليه قائلا : « كلا . إنى ذاهبٌ لأعود أبا الوفاء » .

فأخذ ابن سهيل بيده قائلا : « ادخل ، ادخل أولا فاسمع ثم اذهب إلى أبى الوفاء .. هيَّا بنَا » .

فجذب عبد الرحمن يده وهو يقول : « لا .. أعفنى يا بـن سهيل » .

فقال له ابن سهيل : « لا أعفيك .. والله لتدخلن فتسمع » .

« لا يا بن سهيل .. معاذ الله أن أجلس إلى مغنية » .

« سأقعدها فى موضع تسمع غناءَها ولا تراها » .

« ولا هذا يا بن سهيل .. خلنى يا بن سهيل لسبيلى » .

فأصر ابن سهيل على دخول عبد الرحمن ، وقال له بلهجـة الحازم : « لا والله لتدخلن فتسمع ، أوْ لأدعونها فتخرج إليك » .

ورأى عبد الرحمن أن لا فائدة من المقاومة ، وخشى إن هو أبى الدخول أنْ يدعوها ابن سهيل فتخرج إليه ، فطفق يتلفت يمنة ويسرة كأنه يخشى أن يراه أحـد وقـال : « لا .. لا تفعل ـــ سأدخل » .

دخل الرجلان من باب السور المفضى إلى الدار ، ومرّا بفنائها الواسع واخترقا الحديقة يمشيان بين النخل والسدّر وأشجار الليمون ، ويجوزان الجداول الصغيرة يجرى فيها الماءُ من جابية كبيرة ينزح إليها من البئر ، حتى إذا امتلأت أرسل صمامها فتدفّق الماءُ فى الجداول إلى حيث يروى الزرع والبقل أو يسقى النخل .

وكانت سلامة تنظر من شباك الدار إلى الضيف الغالى أو الصيد الكريم حين مرَّ بفناء الدار ، وتحدق فى وجهه تتأمله تأملاً دقيقًا وتدير طرفها فيه من رأسه إلى قدمه ، فإذا شابٌ فى نحو الخامسة والعشرين ، معتدل القامة عريض الأكتاف ، خفيف اللحم دقيق الأطراف ، أبيض الوجه فى سمرة تشوبه ، وتزينه لحية سوداءُ ليست بالكثيفة ولا بالخفيفة ، يتصل بها عارضان عليهما شعرات غير منتظمة ، أحفى شاربه فلا يبدو منه إلا خضرة أصول الشعر ، وتظلّل أنفه الأقنى أهدابٌ طويلة سوداءُ مرسلة من عينين شهلاوين عليهما آثار السهر ، وفوقهما حاجبان كثيفان لو زحفا قليلا لاقترنا ، وتلوح على جبهته الواسعة سجدة خفيفة فى مثل لون الرصاص . لا يشك الناظر إليها أنها جَبْهةُ عابد !

وأدارت سلامة فى ذهنها — وهى تنظر إليه فى تلك اللحظة العابرة — ما كانت تسمع عنه من تقواه ونسكه ، فأحسَّت بعطف غريب عليه ، وشعرت برثاء له كأنها تقول فى نفسها : « مسكين هذا الرجل ! لا ينبغى لمثله أن يدخل إلى هنا » .

وتوجه ابن سهيل بعبد الرحمن إلى جهة المشربة ، فإذا بناء مربَّع مرتفع عن الأرض قليلا ، لها أربعة أبواب من الجهات الأربع تكاد

لسعتها تشغل النصف من مساحة جدرانها ، وهى مفروشة بالطنافس الثمينة ، وعلى جوانبها زرابى مبطنَة بالمخمل الوثير الزاهى الألوان .

وتردد عبد الرحمن فى الدخول لما رأى من مظاهر الترف التى لم يرها فى حياته ، ولا تطمئن إليها نفسه الزاهدة فى زبرج الحياة ونعيم الدنيا الفانية ، ولكن صاحب الدار قضى على تردده إذ أخذ بيده ودخل به المشربة فى ترحيب بالغ ، وبشر طافح ، فأجلسه فى صدرها المُخْمل الناعم بين الوسائد العالية التى تفصل المقاعد بعضها عن بعض .

وغاب ابن سهيل لحظة شعر فى خلالها عبد الرحمن بضيق شديد كأنه السمكة تؤخذ من الماء لتتقلب على الأرض ، ولا سيما حين نظر فى الجدران فرأى أنواع العيدان والمزاهر معلقة على جوانبها .

وعاد صاحب الدار فدخل معه غلام أسود يحمل خوانًا صغيرًا فأشار له مولاه فوضعه أمام عبد الرحمن ، وأقبلت جارية كهلة بأطباق مملوءَة بالشواءِ والحلوى والعنب والعسل فصفتها على الخوان ، وقعد ابن سهيل بجانب عبد الرحمن فطفق يلاطفه ويعزم عليه فى الأكل ، فأصاب عبد الرحمن من الشواءِ والحلوى ولعق قليلا من العسل وقال : « الحمد لله الذى أطعمنا هذا » . وقدم له ابن



ولكن صاحب الدار قضى على تردده إذ أخذ
بيده ودخل به المشربة فى ترحيب بالغ

(سلامة القس)

سهيل عنقودًا من العنب فأخذ عبد الرحمن يأكل منه حبَّة حبَّة وقد زالت عنه الوحشة التى كان يجدها ، وأنس إلى صاحبه المهذب الظريف .

وتركه ابن سهيل كذلك وقام إلى جانب الحديقة خلف المشربة ، فإذا سلامة واقفة والعود فى يدها تغالب نفسها من الضحك ، ودنا منها ابن سهيل فقال لها : « اجتهدى يا حبيبتى فى صنعتك . إنا لا نريد القس ينصرف من هنا إلا وهو متبول القلب » .

وغمزت سلامة عينيها مبتسمة وقالت : « سأفعل يا مولاى .. لا تخف » .

ووقف ابن سهيل على باب المشربة بحيث يرى عبد الرحمن داخلها وسلامة خارجها وقال : « اسمع يا عبد الرحمن وأشار إلى سلامة فطفقت تحرك عودها وتغنى :

تنيل نزرًا قليلا وهى مشفقة ... كما يخاف مسيسَ الحيَّة الفَرِقُ
لا أعتق الله رقى من صبابتكم ... ما ضرنى أننى صب بكم قَلِقُ
يتوق قلبى إليكم كى يُلاقيَكم ... كما يتوقُ إلى مَنْجاته الغـرِقُ

فطرب ابن سهيل طربًا شديدًا ، ونظر إلى عبد الرحمن فألفاه ساكن الأطراف شاخِصَ البصر غير صدر يرتفع وينخفض وشفتين

تختلجان ، ويده اليمنى فى طبق العنب لا يرفعها من الذهول .

وكانت سلامة طبّة بالغناءِ تصرفه وفْق ما تستلهمه من معانى الشعر الذى تغنيه ، تجعل وَكْدَها أن تطابق بين نبرات صوتها وحركات المعنى ، فتخرج القطعة من الشعر كأنها تُفسِّر بدلالة الترجيع والصوت فوق دلالة الألفاظ ، لتأخذ معانيها سبيلها إلى نفس السامع كأنما كانت هذه المعانى تضطرب فى نفسه من قَبْلُ و لم تأتِ إليها من الخارج .

كانت تعطى كل كلمة ما يناسبها من قوة الصوت أو ضعفه ، ورفعه أو خفضه ، واطراده أو تقطعه ، وسرعته أو بطئه ، واستوائه أو التوائه . حتى يخيل إلى السامع فوق ما يشعر به من المعانى التى تسرى من القطعة إلى نفسه أو تفيض من نفسه على القطعة — أنه يرى الكلمات وقد شاعت فيها الحياة كأنها أجسام بشرية تجىء وتذهب وتقوم وتقعد ، وتلين وتقسو ، وتصل وتصد ، وتذهب مذاهب الحياة المختلفة .

وأشار ابن سهيل إلى سلامة أنْ حسبُك ، والتفت إلى عبد الرحمن قائلا : « هل أعجبك الغناء يا بن أبى عمار ؟ » .

وذُعر عبد الرحمن لصوت ابن سهيل كأنما أفاق من حلم ، وتمتم

قائلا : « أجل والله لقد هز مشاعرى » .

قال ابن سهيل : « سيكون أفضل لو غنَّتْ بين يديك ، ألا أدخلها إليك ؟ » . فقال عبد الرحمن بصوت خافت « لا يا بن سهيل . حسبى هذا » .

قال ابن سهيل : « إنها جاريتى وقد أعجبك غناؤها ، فما يمنعك أن تغنى بين يديك ! » .

وأعاد عبد الرحمن قوله : « لا يا بن سهيل » .

ولكن صاحب الدار لم يمهله أن التفت إلى جاريته وقال لها : « تعالى يا سلامة .. ادخلى » .

ودخلت سلامة باسمة كأنها روضة تشرق بالزهر وتنفح بالعطر .

فانبهر عبد الرحمن وجعل ينظر إليها مذهوبا زائغ البصر كأنه ينظر إلى شىء آخر غيرها ، إذ تمثلت له صورة المرأة التى رآها فى منامه المزعج ، وخيل إليه أنه يسمع صوتها وهى تقول : « يا عبد الرحمن أنقذنى .. يا عبد الرحمن أغثنى ! » .

كان ذلك كله فى لحظة هى فى حساب الزمن ثانيةٌ أو بعض ثانية ، وفى حساب الواقع لعبد الرحمن ظَرْف وَسع سماعَ صوت جميل آت

من خارج باب الجنة ، وانطلاقه لسماعه حيث انتهى إلى الأعراف فرأى المرأة الجميلة العارية فى يدها المزمار ففزعت إليه لمَّا رأته ، وتشبثت بعنقه وهى تصيح مستغيثة إلى آخر القصة .

وما راعه إلاَّصوت سلامة وهى تقول : « صباح الخير يا بن أبى عمار ! » . فأفاق من ذهوله واستمرت سلامة قائلة : « ماذا يخيفك منى .. هل فىَّ من شىء يخيف ؟ » .

فتمتم عبد الرحمن قائلا : « .. نعم .. لا .. لا .. » .

قالت سلامة : « ألا أقعد فأغنى لك ؟ » .

فسكت عبد الرحمن و لم يجب .

قال ابن سهيل : « اقعدى يا فتاتى وهاتى ما عندك » . وأشار إلى مقعد فى الجانب المقابل للصدر فلمَّت من أطراف ذيلها ، وخطَتْ إليه مدبرةً فإذا قوام خصبٌ يفصل وسطه الدقيق جنتين واسعتين ، ثم انثنت مقْبلة وتهيأت لتقعد حيث أشير عليها قُبالة عبد الرحمن ، فإذا جارية كعابٌ يحير فى وجنتيها ماءُ الشباب ، فى وجهٍ يتردد الطرف فيه طويلا دون أن يأخذ صورة واضحة من تقاطيعه المختلفة المؤتلفة فى وقت واحد ، وأسرار تكوينه الإلهى البديع المائج بصور شتى وظلال مختلفة وأطياف عجب .

والتقت عينا عبد الرحمن بعينيها ، فإذا هما غزِلتان غضيضتان لا يشك الناظر إليها أن فى وسعهما أن تتسعا بعد إذا دعاهما لذلك داع ، وعلى خديها نونتان تغوران كلما ابتسمت ، كأن الله خلقهما ليجتمع فيهما نبْع السحر الذى يتدفق من عينيها ! ولها شفتان أرجوانيتان مهما صمتتْ فإنهما تقولان شيئا .

وقد ارتدت حلة حمراءَ ، وجعلت على رأسها غلالة بيضاءَ تستر النصف الأعلى من شعرها الأسود المنسدل على كتفيها من الخلف .

وأشار لها سيدها فاحتضنت عودها حانية عليه ، وجعلت تحركه وتغنى :

وما هى إلا أن أراها فجاءة فأبهت حتى ما أكاد أجيبُ
وأصدف عن رأيى الذى كنت أرتئى وأنسى الذى أزمعت حين تغيبُ
ويظهرُ قلبى عذرها ويعينها علىّ فما لى فى الفؤاد نصيبُ

ولم ينشب عبد الرحمن أن بكى من التأثر ، ورفع إلى سلامة عينين دامعتين وهو يقول : « أحسنت يا جارية الإحسان كله » .

وتحرك للقيام فقال له ابن سهيل : « إلى أين يا عبد الرحمن ؟ امكث قليلا أيضا .. ستسمعك صوتا غيره » .

ونظرت سلامة إليه قائلة : « نعم سأغنى لك لحنا آخر » .

فقال عبد الرحمن : « شكرا لكما ، سأذهب الآن إلى أبي الوفاءِ حتى أدرك صلاة الظهر فى المسجد .. إئذن لى يا بن سهيل » .

قال ابن سهيل باسما : « لا آذن لك حتى تعطيني موثقا أن تختلف إلينا من حين إلى حين » .

فوعده عبد الرحمن ذلك ونهض قائلا : « شكرا لك يا سلامة » .

ووقعت هذه الكلمة الصغيرة من عبد الرحمن موقعها فى نفس سلامة ، فلم تذكر أنها سرَّتْ لكلمة قيلت لها من كلمات الإطراءِ والاستحسان سرورها بهذه الكلمة ، ونهضت إلى باب المشربة وهى تقول : « إلى اللقاء » .

وخرج ابن سهيل يودع ضيفه العزيز إلى باب السور .

الفصل الثامن

كان ذلك اليوم يومًا فاصلا فى حياة عبد الرحمن ، أصبح بعده لا يفكر إلا فى سلامة ، ولا يجد الأنس إلا فى مجلسها ، وكثر اختلافه إلى ابن سهيل ، وأحبه هذا فنشأت بينهما صداقة متينة تزداد قوة يومًا فيومًا .

وشغف عبد الرحمن بسلامة ، فكان يحلم بها ليلــه ونهاره ، ويتسلل طيفها إليه حتى فى صلاته وقيامه ، وقامت بين نفسه الزاهدة الناسكة وبين نفسه المتفتحة للحياة حرب عوان صلى بنارها ، وكان وقودها من روحه وجسمه ، وشقى بها شقاءً لم يشق قبله مثله ، كما سعد بها سعادة لم يجد لها من قبل مثيلا .

وحليت الحياة فى عينه ، وأصبح يجد لها معانى لم تخطر له من قبل على بال ، وتغيرت نظرته إلى الأشياءِ فأصبح يراها بعين غير العين التى كان يراها بها ، وإلى الناس وأعمالهم ، فأصبح كثير العطف عليهم والعذر لهم .

وتفتح قلبه للشعر بعد ما كان يزدريه ويعتبره من اللهو الذى لا يليق بالمتقين ، فأصبح يهتز له ويقوله المرة بعد المرة ينفس به عن الكرب الذى يجده فى صدره ، أو يصف به السعادة التى يجدها فى قرب سلامة » .

واشتهر بمكة حديث القس وسلامة فكثرت فيهما الأقاويل ، وتزيّدوا فيها ما شاء لهم الفضول واختراع الروايات .

وكان من جراء ذلك أن استوحش عبد الرحمن من مجالس الناس ، ومال إلى الوحدة والعزلة ، فكان يصلى فى ركن قصى من المسجد ، ويخرج منه منفتلا حتى لا يثير فضولهم ، فيعتكف فى بيته أو يذهب لزيارة ابن سهيل .

وانقطع برهة عن زيارة صديقه الشيخ الصالح أبى الوفاءِ كأنه كان لا يدرى كيف يلقاه وبأى وجه يقابله ، حتى اشتد به الشوق إليه فعزم أن يلقاه ويكشف له ذات أمره ، لعله يجد عنده رأيًا يهديه فى حيرته ، ومخلصًا ينقذه من ورطته .

وكان أبو الوفاءِ قد اشتاق إلى عبد الرحمن وعجب لانقطاعه عن زيارته ، وقد وصل إليه بعض ما قيل عنه من الأحاديث ولكنه لم يصدق ، أو لم يشأ أن يصدق شيئاً منه .

وأصبح ذات يوم قاعدًا على فراشه ، متدثراً بلحافه ، وعنده صاحباه الكهلان يعودانه فقال له أحدهما :

« إنك اليوم أحسن حالا يا أبا الوفاء » . فقال أبو الوفاء : « أجل يا ولدى لله الحمد .. هل رأى أحدكما عبد الرحمن بن أبى عمار ؟ » .

فأجابه أحدهما قائلا : « إننا نراه كل يوم فى المسجد كعادته — أما يزورك يا أبا الوفاء ؟ » .

فقال أبو الوفاءِ : « لقد كان يزورنى دائمًا ولكنه انقطع عنى منذ ثلاثة أسابيع ، وما أدرى ما الذى قطعه عنى » .

فتجرأ أحد الكهلين وقال : « لعل سلامة جارية ابن سهيل هى التى قطعته عنك » .

وذعر أبو الوفاءِ لهذه الكلمة كأنما لم يتوقع أن يقولها أحد أصحابه أمامه ، وقال وقد بدا الألم فى وجهه : « سلامة ؟ أتقولان هذا أنتما أيضا ؟ لقد حدثتنى أختى عالية أنها سمعت الناس يتحدثون عنه أنه عشق جارية ابن سهيل ، وأنه يذهب كل يوم لسماعها ، فلم أصدق هذا القول ، ورجوت ألا يكون صحيحًا » .

فأجابه الكهل قائلا : « لا يا أبا الوفاءِ بل هو صحيح وأأسفاه !

لقد جُنّ عبد الرحمن بحبها وتدله حتى اشتهر أمره فى الناس ، فلم يبق بمكة بيت لم يسمع بحديث القس وسلامة » .

وأيد الكهل الآخر حديث صاحبه قائلا : « بل لقد سمعتُ الجوارى والغلمان يغنون بأبيات فى شأنهما فى الطرقات » .

فتنهد الشيخ قائلا : « لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . من كان يصدق قط أن عبد الرحمن بن أبى عمار يجلس إلى مغنية ، ويسمع مزمار الشيطان ؟ » .

وحانت من أحد الكهلين التفاتة إلى النافذة المطلة على جانب الطريق ، فإذا به يرى عبد الرحمن مقبلا فى الشارع ، فقال : « سبحان الله . هذا ابن أبى عمار مقبلا .. ما أحسبه إلا آتيًا لزيارتك يا أباالوفاءِ » .

فتهلل وجه الشيخ وبرقت أساريره من الفرح وقال : « الحمد لله . إنى لفى شوق إليه » .

قال الكهل : « أرجو أن تنصحه يا أبا الوفاءِ عساه يعدل عما ورط نفسه فيه » . فقال أبو الوفاءِ : « إنى لأستحى أن أكلمه فى هذا الأمر » .

« أتستحى من الحق يا أبا الوفاءِ ؟ » .

« بل أستحى له من نفسى أن يقع مثله فى أمر كهذا » .

ونظر الكهل الآخر إلى باب الغرفة ، فلمح عبد الرحمن مقبلا ، فالتفت إلى أبى الوفاءِ قائلا : « ها هو ذا أقبل » .

واستأذن عبد الرحمن فى الدخول ، فأذن له الشيخ فدخل مسلماً فردوا عليه السلام ، ورحب به أبو الوفاءِ قائلا : « أهلا بك يا بن أبى عمار .. » .

فقال عبد الرحمن : « كيف أنت يا أبا الوفاءِ ؟ » .

« بخير يا بنى .. وأين أنت ؟ لقد انقطعت عن زيارتى منذ زمن ! » .

« معذرة يا أبا الوفاء .. لقد كنت مشغولا » .

« أرجو أن يكون قد انتهى شغلك الآن » .

فتنهد عبد الرحمن قائلا : « أرجو ذلك يا أبا الوفاء » .

وعاد أبو الوفاءِ إلى السؤال فقال : « ما هذا الشغل الذى صرفك عنا يا بنى ؟ » .

ففهم عبد الرحمن من نغمة أبى الوفاءِ أن الشيخ قد علم بما كان من أمره ، والتفت إلى صاحبيه الكهلين فكسرا طرفهما كأنما أشفقا أن ينظرا إلى وجهه ، فسكت عبد الرحمن ولم يجب .

فقال أبو الوفاء : « قل لى يا عبد الرحمن فوالله ما كنت تخفى عنى شيئًا » .

فحاول عبد الرحمن أن يجيب الشيخ ، فثقل عليه ذلك فأطرق رأسه و لم يجب .

ولكن إطراقه لم يطل إذ سمع صوت جارية تمشى فى الشارع وتغنى بلحن من الألحان الدارجة البسيطة التى يكثر ورودها فى الحجاز ، وتردد بين فترة وأخرى فتشيع على الألسنة ، وتسير بها الركبان . وهى أشبه شىء بالحداء فى بساطتها وسهولتها لولا خلوها من تلك الروح البدوية الفحلة ، ولولا أن فيها من الطابع الحضرى الرقيق الناعم الذى لا يخلو فى كثير من الأحيان من روح المجانة والاستهتار . كثيرًا ما تتضمن هذه الأغانى الدارجة خبر حادث من الحوادث العامة التى تقع فى الحجاز أو غيره من البلدان الإسلامية الأخرى ، أو نقدًا لعمل وال من الولاة أو تشهيرًا بفضيحة اجتماعية أو خلقية ، فكأن تلك الأغانى كانت تقوم فى ذلك الوقت مقام الصحف فى أيامنا هذه .

وسمع أبو الوفاءِ وأصحابه صوت الجارية وهى منطلقة لحاجتها فى الشارع ، كأنما تتولى عن عبد الرحمن ما ثقل عليه من الجواب وهى

تقول :

الآنَ فليعُلـــــــنْ مـــن شاءَ تهيامَـــهْ
قــد وقــع الــقسُّ فى حبِّ سلاّمـــة !
لم يحمـــه الحبَّـــا صيامُـــه الدائـــمْ
وخوفـــه الربَّـــا وليلـــهُ القائـــمْ
أيـــن عبـــاداتكْ يـــا بـــن أبى عمَّـــارْ
أمست صبابـــاتُكْ أحدوثـــة السّمـــار !
سلاّمـــةَ الـــقسِّ ! ليهنك الـــــقسُّ
يـــا منيـــة النـــفس أنت لـــه نـــفسُ !

فحمىَ أبو الوفاء غضبا وقال : « ويل لابنة الفاعلة » . والتفت إلى أحد الكهلين قائلا : « اخرج يا عبد الله فكم فمها » .

فاستجمع عبد الرحمن قوته وقال : « بل دعها يا عبد الله فهى أبيات سائرة فى أفواه العشرات من الجوارى والغلمان فى أزقة مكة وشوارعها » .

فقال أبو الوفاءِ وهو يرجف من الغضب كأنه نسى ما قد سمع مما قيل عن صاحبة الشاب الناسك : « لا بد من شكواهن إلى الوالى .. كيف نسكت عن هذا البهتان ؟ » .

فقال عبد الرحمن بهدوء .. : « إنه ليس ببهتان يا أبا الوفاءِ » .

فنظر إليه الشيخ كأنه ينكر عليه قوله وقال : « معاذ الله أن يقع منك هذا يا بن أبي عمار » .

فغلب عبد الرحمن البكاءُ وقال بصوت تخنقه العبرة : « إنه والله قد وقع يا أبا الوفاءِ .. ولا حيلة لى فيه » .

فسكت أبو الوفاءِ وهو يغالب عبرة تجول فى عينيه ثم قال : « إن تلك قد وقعت فى شىء من ذلك فأَنبْ إلى الله فإن المؤمن إذا تاب تاب الله عليه » .

فقال عبد الرحمن بصوت متقطع : « لقد جاهدتُ لأصرف نفسى عن رؤية هذه الجارية وسماعها ، فلم أجد إلى ذلك سبيلا » .

قال أبو الوفاءِ : « فى وسعك لو شئت أن تنقطع عن دار ابن سهيل وتفرغ إلى صلاتك » .

فأجابه عبد الرحمن وقد عادت إليه رباطة جأشه قائلا : « لقد فعلت ذلك فوجدتُنى لا أنشط إلى صلاتى فى اليوم الذى لا أرى سلامة فيه » .

فحوقل أبو الوفاءِ وقال بلهجة فيها صرامة وقسوة : « أوَ قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ ياقَسُّ حتى استطاع أن يريك الباطل

حقًا ؟ » .

فقال عبد الرحمن : « أبعد من هذا يا أبا الوفاءِ ، حتى لأشكُّ أنَّ هذا من عمل الشيطان ، فقد وجدتُنى بعد أن بُليت بحب هذه الجارية أكثر نشاطًا فى عبادة ربى ، وأغزر دمعة فى صلاتى ، وإذا قرأت القرآن رقَّ قلبى وذاب ، وشعرت بفيض من المعانى ينثال علىَّ ! » .

سكت الشيخ هنيهة كالمتعب مما سمع ثم قال : « لا يغرنك هذا يا عبد الرحمن ، فإن للشيطان إلى نفس المؤمن لمسارب أدق من الشعرة ، وقد أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام أن يعوذ به من شر الوسواس الخَنَّاس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، مِنَ الجِنَّةِ والناس » .

فقال عبد الرحمن وقد عادت رقته إليه : « إنْ يكن ما تقول حقًا فيا طول شقائى ؟ » .

وكأن الشيخ كان مشغولا بأفكاره عن مقال عبد الرحمن ، فلم يصغ إليه واستأنف حديثه قائلا : « أخشى يا بن أبى عمار أن أكون شريكا فى هذا الذنب ، فأنا الذى بعت سلامة لابن سهيل مع علمى بأنه سيعلمها الغناءَ .. ولعل الله عاقبنى على ذلك بأن سلط فتنتها على أحبِّ الناس إلىَّ » .

وابتدره أحد الكهلين وقال : « ما أشد محاسبتك لنفسك يا أبا الوفاءِ ! إن الله يقول : « ولا تَزِرُ وَازرة وِزْرَ أخرى » .

ولم يجد الشيخ فرصة ليقول كلمة أخرى ، إذ رنَّ صوت غلام على حماره فى الطريق وهو يغنِّى :

الآنَ فليعلـــــنْ ... مـــن شاءَ تهامَـــةْ
قـــد وقـــع الـــقسُّ ... فى حبّ سلاّمـــة !
أيـــن عبــــاداتُكْ ... يـا بـن أبى عمَّـار ؟
أمست صبابـــاتك ... أحدوثـــة السُّمَّـار
سلامـــة الـــقسِّ ... ليهنك الـــقسُّ
يامنيـــة النـــفسِ ... أنت لـــه نـــفسُ !

الفصل التاسع

عاد عبد الرحمن بن أبى عمار لزيارة صاحبه الشيخ أبى الوفاءِ بعد ذلك مرتين ، حاول فيهما أن يقنعه بعذره فيما ابتُلِى به من ذلك الحب الذى لا قِبلَ له بدفعه ، لعله يظفر منه بكلمة لينة ، تنزل بردًا وسلامًا على صدره المتأجج بالحب ، وقلبه الطافح بالحيرة ، وتضع حدًّا للحرب المستعرة القائمة بين نفسه الأولى ونفسه الثانية ، فليس من الحق عنده أن لا يكون لمثل هذه الحالة الموجودة فى صميم الحياة ، وفى فطرة الله التى فطر الناس عليهما جميعًا ، من علاج غير البتر لو كان فى استطاعته البتر ، فكيف و لم يكن له بهذا البتر يدان .

ولكن أبا الوفاءِ كان شديدًا صارمًا فى موقفه من عبد الرحمن فلم تأخذه فى ذلك هوادة أو لين ، وتمسك بأن ما وقع فيه عبد الرحمن من الفتنة بهذه القينة والسماع لألحانها إثم صريح لا تأويل فيه ، ولا يغفره الله له حتى يقلع عنه الإقلاع ويكف عنه ألبتّة . وكان يشتد على عبد الرحمن فى ذلك بماله من الدّالة عليه ، ويجتهد بكل وسيلة أن يحمله على

الرجوع إلى سيرته الأولى ، ونسى ما بينه وبين صديقه الشاب من فارق السن ، فما يراه هو وأمثاله من الشيوخ الطاعنين فى السن ، السائرين فى المرحلة الأخيرة من الحياة ، ممكنًا سهل الانتهاج ، قد يكون فى نظر شاب مثل عبد الرحمن مستحيلا أو كالمستحيل .

وقد نشأ أبو الوفاءِ فى عصر عبد الرحمن ، وأخذ نفسه بالشدة والصرامة من صغره . واشتغل بالتجارة والكسب من سنى حياته الأولى ، ولمَ يَعِن له من الظروف القاهرة ما مال به عن النهج الذى اختطه لنفسه فى الحياة ، فكان صارمًا على نفسه وعلى أهله ، وقد رأينا كيف اشتد فى معاملة جاريته سلامة التى رباها من صغرها . وكان يحبها وتحبها زوجه أم الوفاءِ حبًا يقرب من حب الولد . فلما رأى ميلها للغناءِ وحاول صرفها عنه فلم يفلح ، باعها غير نادم عليها فكان من جرَّاءِ ذلك أن ماتت زوجه على آثارها حزنًا .

ورأينا كذلك شدته على أرباب اللهو والغناءِ ، وحملته القاسية عليهم ، وسعيه لدى الولاة لإخراجهم من مكة حتى لا يفسدوا فتيانها ، ورأينا كيف يستعين فى ذلك بصديقه الشاب الفقيه الناسك لمكانه فى نفوس أهل مكة ، حتى كان يضرب به المثل فى نسكه ،

وعبادته .

فليس بعجيب أن تكون صدمته عنيفة إذ عاش حتى رأى أمله يخيب فى صديقه القس الذى طالما اعتز به . واعتبره المثل الذى ينبغى أن يكون عليه شباب الإسلام فى هذا العهد الذى أخذ فيه اللهو يطغى على الجد ، وأوشك حب التَّرف والميل إلى الاستمتاع بملذات الحياة الفانية يقضى على ما بقى فى قلوب الناس من روح التقوى والورع والزهد .

ولم يكن استجداءُ عبد الرحمن فتيا صاحبه أبى الوفاءِ بما ينقع من غلته ، ويشد من عزيمته ، ويوفق بعض التوفيق بين ما وقع فيه من الضرورة والمحنة ، وما يتطلبه مثله الدينى الأعلى — لم يكن ذلك عن جهل منه بالدين ، فقد كان عبد الرحمن فقيها ، وكان الشيوخ والكهول لا يجدون حرجًا فى الأخذ عنه ، واستفتائه فيما ينوبهم من أمور دينهم ، ولكنه أراد أن يستبرىء لنفسه ولدينه ، وطمع فى صديقه الشيخ أن يكون عونًا له على الخلاص بوجه من الوجوه المعقولة من ذلك المأزق الذى وقع فيه ، وظهيرًا له يساعده فى اجتياز تلك المحنة النفسية الكبرى التى لا يؤمَنُ فيها على مثل شبابه العارِم أن يتردَّى به فى مهاوى الهلاك الأكبر .

ولكنه لم يجد من أبى الوفاءِ إلا صلابَة يراها فى غير محلها ، ولا مطمع له معها فى أن يبرأ من العلة التى يشكو منها ، فرأى أن ينقطع عن زيارته ريثما يصلح بنفسه من أمره ما عجز عن إصلاحه بالتعاون معه . وكان شديدًا على نفسه أن يقطع بيده عرى الصداقة المتينة التى ربطت بينه وبين الشيخ الصالح برهة من الزمان قضياها فى تقوى الله ، وتعاونا فيها على البر والإحسان ، ولكن قضى الأمر ولم يكن له بد من ذلك إبقاءً على حرمة الشيخ وتفاديا من إيذائه فى تلك السن العالية بأكثر مما أوذى به من المجادلة والحجاج .

وكان كرور الأيام قد خفف كثيرا من الحيرة التى كان يجدها عبد الرحمن فى أمر ذلك الحادث الخطير الذى طرأ عليه ، واطمأن بعض الاطمئنان إلى موقفه منه أمام ربه ، فكأنه قد وجد من نفسه الفُتيا التى طالما طمع أن يناها من صاحبه الشيخ فلم يُقْدَر له ذلك .

وهدأت تلك الحرب الجبَّارة التى كانت تستعر فى رأسه بين نفسه التقية الزاهدة ونفسه المقبلة على الحب والحياة ، فكأنما تصالحتا على ما فيه الخير لصاحبهما ، أو ضعفتا من طول العراك فتوادعتا إلى أجل غير مسمًّى .

ولكن إنْ هدأت هذه الحرب القائمة فى رأسه ، فقد قامت حرب

أخرى لا تقل هولا عن تلك فى صدره ، بين شغفه بسلامة ورغبته الظامئة فى الحصول عليها ، وبين شعوره بالعقبات التى تقوم فى طريقه دونها . فهو يعلم أن ابن سهيل يحب جاريته ويؤثرها على كل ما يملك فى الحياة ، ويفضل سماعها على كل نعيم وكل متعة من متع العيش ؛ فلا يعقل أن يبيعها لأحد ولو أعطى بها أضعاف أضعاف ثمنها . وهَبْ أنه يرضى ببيعها فأى مال فى الدنيا يقوم بثمن تلك الجوهرة الغالية التى لو لم يكن فى الدنيا غيرها لما نقصها ذلك من متاعها وزينتها شيئًا . وبَعْدُ فماذا يملك عبد الرحمن من المال غير تلك الضيعة التى ورثها عن أبيه ، والتى لا تساوى فى نظره نظرة ينظرها فى وجه سلامة ، أو لحظة يسمع فيها غناءَها العذب ؟ .

لقد علم عبد الرحمن أن سلامة تضمر له مثل ما يضمر لها من الحب ، عرف ذلك من نظرات عينيها ، وفلتات حديثها ، وخفوفها للقائه كلما أقبل ، ونشاطها عند حضوره كلما حضر ، ووجومها عند انصرافه من دار مولاها . وتلك نعمة كبرى لا يستطيع عبد الرحمن القيام بشكرها ، ولكن ما قيمة هذه عنده وغناءها له ، وهو لا ينوى ريبة يريبها معها ولا يريدها إلا حلالا ؟

وهل تدور الريبة قط بخلد عبد الرحمن وهو ما هو فى تقواه وورعه

وفقهه ودينه وخوفه من الله وشدة محاسبته لنفسه ؟ لأَهْوَنُ عليه من ذلك أن يخر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق .

وبمن يقترف الريبة ؟ أبتلك التى وهبها قلبه وأحب الحياة من أجلها وعرف جمال الكون لما عرفها ؟

ومن يخون فيها ؟ أذلك الصديق الكريم الذى أحبه وأعزه ووطأ له كنفه وأحله من نفسه محلا كريمًا ، وائتمنه على حرمته ووثق بعصمته ودينه ؟

ذلك الصديق الكريم الذى تغاضى زمنًا عن الحب الوليد الذى أخذ ينمو بينه وبين جاريته الأثيرة عنده على مر الأيام ، حتى إذا ترعرع وبلغ أشده لم يبخل أن يؤثر بها على نفسه ، فيعرضها عليه هِبة خالصة من عنده على شدة تعلقه بها ونفاستها عنده ، فما حال بينه وبين تخلّيه عنها لعبد الرحمن إلا إباءُ عبد الرحمن .

على أن هذا العَرْضَ الكريم من قِبَلِ ابن سهيل الذى أبى عبد الرحمن قبوله كراهية أن يرزأ صديقه فى ماله — ولا سيما بعد ما انتهى إليه سرًا من وقوع ابن سهيل فى الضيق وكثرة الديون عليه من جراء جوده وإسرافه — قد قوى من أمل عبد الرحمن فى الحصول على سلامة

فاعتزم فى نفسه امرًا .

ورُؤِىَ عبد الرحمن بعد ذلك يشتغل بالسمسرة فى السوق ويجتهد فى الكسب ، فلم يعجب الناس لأمره بعد ما كان منه ما كان ؛ ولكنَّ أحدًا لم يعلم ماذا طوى عزمه عليه . وإذا أظله الليل وقضى صلاة العشاءِ الأخيرة خرج إلى العراءِ خارج مكة وارتقى شعبًا من شعابها فقضى شطرًا من ليله هناك ينظر فى السماء ويتأمل فى النجوم .

وبكر عبد الرحمن ذات صباح إلى ابن سهيل فتلقاه بالبشر والترحيب كعادته ، وجلس يحادثه فى المشربة فقال له فيما قال : « لقد أعجبتنى أبياتك يا بن أبى عمار ، إنك لشاعر » .

فقال عبد الرحمن وقد أدركه شىء من الخجل : « أى أبيات تعنى يا بن سهيل ؟ » . فأجابه ابن سهيل قائلا : « الأبيات التى قلتها فى سلامة » .

فازداد خجل عبد الرحمن حتى تورد خده وتمتم قائلا : « ولكنى .. » .

فقاطعه صاحبه قائلا وهو يبتسم : « لا تحاول إخفاءَها عنى ، لقد أنشدتْها سلاّمةُ لى فأعجِبتُ بها ، وقد وضعتْ لها لحنًا » .

وأقبلت سلامة عند ذلك ودخلت باسمة وقالت : « أنعم صباحا

يا عبد الرحمن » .

فأجابها عبد الرحمن قائلا : « عمى صباحا يا سلامة .. إنى ساخط عليك » .

قالت متدللة : « علام يا بن أبى عمار ؟ » .

قال لها : « ألم تعدينى بأن لا تنشدى الأبيات لمولاك ؟ » .

فكسرت طرفها له وقالت : «دع عنك هذا .. لقد سُرَّ مولاى بأبياتك ووضعت لها لحنًا » .

فقال ابن سهيل : « إن عبد الرحمن يخشى أن أغار منه عليك يا سلامة .. » .

فضحكت سلامة وقالت : « ليطمئن بالك .. إن مولاى لا يغار ممن يشبب بجاريته بل يسره أن يسمع شعرًا رائعًا كشعرك » .

فقال ابن سهيل : « أجل والله إنه لشعر رائع ـــ هاتى أسمعينا يا سلامة » .

فقامت إلى عود معلق فى الحائط فأخذته ، والتفتت إلى عبد الرحمن قائلة : « إنه لحن سيعجبك » . ومالت بجنبها متكئة على الوسائد العالية وأخذت تجرب عودها وتشد أوتاره ، كأنما تضبطه على لحنها الجديد ، وطفق العود يترنم فى حجرها وهى تغنى :

سلاَّمُ هل لى منكم ناصرُ ؟ وهل لقلبى عنكُمُ زاجر ؟
قد سمع الناس بحبى لكم فمنهم اللائم والعاذرُ !

ولم يملك ابن سهيل نفسه من الطرب أن قام إلى عبد الرحمن فضرب بيده على ظهره قائلا : « ثق يا بن أبى عمار أنى لك لمن العاذرين !! . » .

وعاد إلى مقعده واستمرت سلامة فى غنائها .

قالوا أحبَّ القَسُّ سلامة وهو التقىُّ الناسك الطاهرُ
كأنما لم يَدْرِ قَبْلى الهوى إلا الغوى الفاتك الفاجرُ

فظهر التأثر الشديد على عبد الرحمن ، وما بلغت سلامة إلى قولها :

يا قوم إنى بشر مثلكم وفاطرى ربُّكم الفاطرُ
لى كبدٌ تهفو كأكبادكم ولى فؤاد مثلكم شاعرُ !

حتى طفق عبد الرحمن يبكى ، فقال ابن سهيل ، « أعيدى يا سلامة : يا قوم .. » .

فأعادت البيتين فقال عبد الرحمن وهو يمسح دموعه : « حسْبُك يا سلاّمة حسْبُك . لكأنى والله لم أقل هذه الأبيات ، لقد كسوتها بتلحينك روحا لم تكن لى » .

فقالت سلامة : « إنما أعجبنى شعرك فألهمنى هذا التلحين » :

وبينما هم فى ذلك إذ دخل غلام ابن سهيل ، فدنا من مولاه وأخبره أن بالباب رسول القاضى يريد أن يراه ؛ فبدت على وجهه مسحة من الكدر وقال للغلام : « ائذن له بالدخول » .

فانطلق الغلام وخرج ابن سهيل فى أثره من المشربة ، حتى إذا بلغ باب السور وجد الرسول فحياه وقال له الرسول : « أجبْ مولانا القاضى يا بن سهيل » . فقال ابنُ سهيل : « سألحق بك » .

قال الرسول : « لا يا بن سهيل ، إنه كلَّفنى أن آتى بك الآن لأن دائنيك قد حضروا هناك » .

فقال ابن سهيل : « لا حول ولا قوة إلا بالله .. خيرًا .. انتظرنى لحظة سأرتدى عباءتى » .

وانطلق ابن سهيل ناحية الدار فارتدى عباءَته ، ثم عرج على المشربة فوجد عبد الرحمن وسلامة جالسين كما كانا ، فقال لهما : « لقد دعانى القاضى فى أمر هام ، فابْقيَا مكانكما حتى أعود إليكما » .

فهمّ عبد الرحمن بالقيام قائلا : « إئذَنْ لى بالانصراف يا بن سهيل » .

فأجلسه ابن سهيل قائلا : « كلا يا عبد الرحمن ، بحياتى عليك إلاَّ ما بقيت مكانك حتى أعود ».

والتفت إلى سلامة فقال لها : « استمرى فى غنائك ولا تدعى ابن أبى عمار يخرج حتى أعود إليكما » .

فقالت سلامة : « سمعًا وطاعة يا مولاى » .

وخرج ابن سهيل ، فلقى الرسول على الباب فسار معه .

وخلا المجلس بعبد الرحمن وسلامة ، وساد فيه الصمت برهة من الزمن شعر فى خلالها عبد الرحمن بشعور غريب ، فيه رهبة وفيه ضيق وفيه شيء من الفرح ، وتمادى به هذا الشعور الغريب حتى خُيِّل إليه أنه أشبه ما يكون بمن أسقِط فى يده ، أو وقع فى فخ نصب له ، فندم على أن لم يُصِرَّ على ابن سهيل فى طلب الانصراف ، وخطر له أن يترك سلامة وينصرف لولا أن رأى ذلك قد يثير فى قلب صديقه ظنَّه لا داعى إليها ، وذكر ثقته بنفسه ومعرفته لواجبه فاطمأنّ إليهما ، وعجب كيف ساوره ذلك الاضطراب .

أما سلامة فكانت أهدأ من صاحبها إذ ذاك ، ولكنها كانت لا تخلو مع ذلك من وجوم وارتباك ، وكان الله وحده يعلم ماذا كان يجول فى خاطرها .

على أنها لم تصبر على الصمت طويلا ، ولعلها أدركت ببصيرة الأنثى فى مثل هذه المواقف بعض ما دار فى خَلد جليسها ، فتشاغلت بالعود وجعلت تضرب عليه لحنًا صامتًا لعله لو حفظ لكان أجمل تعبير موسيقىّ وأصدقه عن هذه الحالة المعقدة من حالات النفس الإنسانية !

ووضعت العود من يدها ونظرت إلى عبد الرحمن قائلة : « ألم تصنع فىّ شعرًا آخر يا عبد الرحمن ؟ » .

فرفع عبد الرحمن بصره إليها فى شىء من الاضطراب وقال : « لا يا سلامة » . فابتسمت قائلة : « لا أصدقك يا عبد الرحمن . لا بد أنك قلت شيئًا جديدًا » .

فقال عبد الرحمن — وقد شعر بتبدُّد الانقباض الذى كان يسود المجلس : « وماذا تصنعين بشعرى ؟ لست بشاعر . عندك ابن أبى ربيعة والعرجى ، وعندك الأحوص وابن قيس الرقيات وأولئك الفحول ، فالتمسى شعرهم » .

فقالت سلامة بلهجة يخالطها الجد : « لا يعجبنى شعر هؤلاء . إنى أحب شعرك يا عبد الرحمن ، وأجده يبلغ منى ويلهمنى التلحين البارع » . ثم ضحكت وقالت : « لقد غنيتُ أبياتك أول أمس

للغريض ومعبد فلم يصدقا أن التلحين من عملى ، وظن كلاهما أنه من عمل صاحبه » .

قال عبد الرحمن : « ماذا تجدين يا سلامة فى شعرى ؟ » .

فصمتت سلامة لحظة ثم قالت : « لا أدرى يا عبد الرحمن ، ولكننى أجده يحركنى وتستجيب له نفسى .. فبالله عليك يا عبد الرحمن ألم تقل شيئًا جديدا ؟ » .

فقال عبد الرحمن : « بلى يا سلامة ، ولكنى لن أطلعك عليه » .

« ولم يا عبد الرحمن ؟ » .

« لأنك نقضت ميثاقى » .

« نقضت ميثاقك ؟ معاذَ الله يا بن أبى عمار .. إن ميثاقك مكتوب فى قلبى ولن أنقضه أبدًا ».

« ألم تنشدى شعرى لمولاك ؟ » .

« أما زلت تعدُّ هذا ذنبًا يا عبد الرحمن ؟ لِمَن أنشده إن لم أنشده لمولاى ابن سهيل ؟ » .

« وأنشدتيه أيضًا للغريض ولمعبد » .

« إنما فعلت ذلك لأعرف رأيهما فى اللحن الذى عملته » .

« أتعديننى ألا تنشديه لمولاك ولا لأحد غيره ؟ » .

فأجابته سلامة قائلة فى صيغة تمريض : « لك عندى ما تشاءُ ، فهات يا عبد الرحمن » .

فأخرج عبد الرحمن من جيبه قرطاسًا فدفعه إلى سلامة ، فنظرت فيه ثم ردته إليه وقالت : « اقرأه يا عبد الرحمن » . فقرأه .

فتأثرت سلامة . تأثرًا شديدًا ، ولكنها حاولت إخفاءَه فجذبت القرطاس من يد عبد الرحمن ، ووضعته أمامها وطفقت تضرب على عودها — وهى ناظرة فى القرطاس — لحنًا صامتًا شجيا غامضًا غير مستقر ، وما زالت بعودها تعالجه حتى استقر اللحن بعض الاستقرار ، فالتمعت عيناها ، ونظرت إلى عبد الرحمن باسمة وأخذت تغنى :

عَلامَ سلبت يا سلامُ قلبى ؟ فعاف الرُّشدَ واستَحلى الضلالا

فاهتز عبد الرحمن فرحًا وقال : « ماذا ، أوَ جدت اللحن ؟ »

فأشارت سلامة برأسها أنْ نعمْ ، واستمرت تغنى :

وقبلكِ ما عرفت سوى صلاتى ولم ينل الهوى منِّى منالا
سمعتُك فاجتوانى نصفُ عقلى فلما لُحْت لى ارتحل ارتحالا

وأخذ اللحن يستقر شيئًا فشيئًا ، وأخذ صوتها يعلو وهى تقول :

عذِيرى الله من بصرى وسمعى ! فقــد كانــا على قلبــى وبــالا
دعينــى أستقيلك بــعضَ لُبــىَّ ولُب المرءِ أفضل مــا استقــالا
وارتفع صوتها إلى الأوج عندما غنت :
أهابك أن أقولَ بذلت نفسى ولـو أنى أطـعت القـلب قــالا
ثم خفضت صوتها حتى اضمحل فى القرار وهى تقول :
حياءً منكِ حتى ذاب جسمى وشقَّ على كتمانى وطــــالا !

ووضعت العود من يدها فى حجرها ، ونظرت إلى وجه عبد الرحمن نظرة تائهة فيها كل معانى الاستسلام والغزل ، وقد تورد خداها وربا جسمها كأنما نُفِخَ فيه فزِيدَ بسطة . فنظر إليها عبد الرحمن فخفضت طرفها ، وأخذت تقلب العود فى يدها وهــى تقول : « يا بن عمار إنى أحبك » .

فقال عبد الرحمن وهـو يضطـرب : « وأنـا والله يـا سلامــة أحبك ؟ » .

فقالت وهى تنظر إليه مائلة الرأس : « وأحب أن أضع فمى على فمك » .

فقال لها وبصره إلى الأرض : « وأنا والله أحب ذلك » .

فقامت سلامة ودنت منه وأخذت بيده قائلة : « إذن فمــا

يمنعك ؟ فوالله إن الموضع لخال » .

فذهل عبد الرحمن ، وخُيّل إليه أنه يرى طيفًا فى حلم ، وبقى صامتًا يدير طرفه فى أنحاء المشربة فقالت سلامة : « ليس عندنا من أحد غيرى وغيرك ! » .

فانتفض عبد الرحمن فجأة ، ونظر إليها نظرة هائلة وقال : « أنسيت الله يا سلامة ؟ » .

فاضطربت سلامة ورفعت يدها عن يده ، وكأنَّ نارًا لذعتها ، فتراجعت إلى الوراءِ وعيناها الزائغتان لا تفارقانه كأنما ترى أمامها هَوْلا تتقيه .

واستمر عبد الرحمن يقول : « لا يا حبيبتى لا ، إنى أحبك يا سلامة ، وإنى سمعت الله عز وجل يقول : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » . وأنا أكره أن تصير الخُلَّةُ التى بيننا عداوة يوم القيامة ! .

وغامت عيناه بالدموع ، وعادت سلامة إلى مقعدها ومالت بوجهها على المتكإِ وطفقت تبكى ؛ ثم رفعت رأسها وقالت والدموع تتساقط على خديها : « معذرة يا عبد الرحمن . عسى أن لا تكون ساخطًا علىّ » .

فقال عبد الرحمن بصوت يخنقه البكاءُ : « كلا والله يا حبيبتى ، أنا راض عنك .. ولكن اصبرى حتى يجعل الله لنا مخرجا » .

فصمتت سلامة هنيهة ثم قالت : « وكيف المخرج يا عبد الرحمن ؟ » .

فقال لها : « لا أدرى والله يا سلامة » .

فعادت إلى صمتها ثم قالت : « ولكننى أدرى يا عبد الرحمن .. ألا تستوهبنى من مولاى ابن سهيل ، فإنه والله ليحبُّك ، وإنه لكريم وما أحسبه يضنُّ بى عليك » .

قال عبد الرحمن : « صدقت يا سلامة ، لقد فعل ابن سهيل ذلك .. قد عرض على منذ أيام أن يَهَبَك لى » .

فابتدرته سلامة قائلة : « أحقًا فعل ذلك يا بن أبى عمار ؟ » .

فقال لها : « إنْى والله لقد فعل .. ولكننى لم أقبل » .

فقالت بلهجة العاتب : « ولماذا لم تقبل ؟ » .

« لأنى لم أشأْ أن أرزءَ هذا الرجل الكريم فى ماله ، فقد بلغنى أنه فى ضيق وأنْ قد ركبتْه ديون كبيرة » .

« وكيف علمت ذلك يا عبد الرحمن ؟ » .

« سمعتُ الناس يتحدثون بذلك يا سلامة » .

فتنهدت سلامة وقالت : « أجل هذا حق .. مسكينٌ مولاى ! لقد جنى جوده وإسرافه عليه » .

فقال عبد الرحمن : « أشهد أنه لجواد كريم .. حتى فى أيامه هذه الحرجة لم يشأ إلا أن يفتح بابه لضيوفه وزواره » .

قالت سلامة : « ولإخوانه الشعراء العابثين ، والمغنين الماجنين ينفق عليهم بغير حساب » .

فسكت عبد الرحمن مليًا ثم قال : « أجل كنت ألوم هؤلاء القوم وأحمل عليهم بقسوة ، حتى انتقم الله لهم منى فجعلنى مثلهم أو قريبًا منهم » .

« كلا لست مثلهم يا بن أبى عمار . أنت لا تعبث عبثهم ولا تأخذ أخذهم » .

« أستغفر الله يا سلامة .. بل لعلهم أحسن حالا منى ، إنهم لم يجالسوا عطاءَ بن أبى رباح ، و لم يتفقهوا فى الدين مثلى ،لعلهم لو فعلوا لما وقعوا فيما وقعت فيه » . ثم أخذ يقول :

قد كنت أعذلُ فى السفاهة أهلَها   فاعجب لما تأتى به الأيَّامُ
فاليوم أعذرهم وأعلمُ أنما   سُبُلُ الغواية والهُدى أقسامُ

وسكتت سلامة برهة كأنها تجيل فكرها فى أمور شتى ، ثم

قالت : « قد علمت يا عبد الرحمن ما وقع فيه مولاى من الضيق ، وأنه لا محالة بائعى ، وأخشى أن لا أراك بعد ذلك ولا ترانى » .

فقال عبد الرحمن : « لقد حدثتنى نفسى أن أبيع مالا لى بالوادى ورثتُه عن أبى ، فأشتريك بثمنه فأعتقك فأتزوجك .. أترضين بهذا يا سلامة ؟ » .

فأجابت قائلة : « كيف لا أرضى بهذا يا عبد الرحمن وأنا راضية بما دونه ؟ بحسبى أن أكون جاريتك ، أقوم بخدمتك ، وأعمل على راحتك .. ولكن إذا بعت مالك فمن أين تعيش ؟ » .

فابتسم عبد الرحمن وقال : « سأخرج إلى السوق وأشتغل سمسارًا ، وقد جربت ذلك يا سلامة فنجحت فيه » .

فضحكت سلامة وقالت : « والمسجد يا عبد الرحمن ؟ » .

قال لها : « للمسجد وقت ، وللسوق وقت ، ولك أنت يا سلامة وقت .. ولست بأفضل من أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وقد كان أولهما تاجرًا وثانيهما دلالا .. وإنهما لأفضل من أبى هريرة وسائر أهل الصُّفَّة الذين لزموا المسجد الحرام و لم يشتغلوا بالكسب » .

ارتاحت نفس سلامة لهذا القول ، وكأنما أرادت أن تستزيد منه



وسكتت سلامة برهة كأنها تجيل فكرها فى أمور شتى .

فقالت : « عجبًا يا عبد الرحمن ، من أين جاءك هذا الرأى ؟ أما سمعت بهذا من قبل ؟

فقال لها : « بلى قد سمعت به من قبل ، ولكننى لم أفقهه فلم أعمل به ، وإنما فقهته بعد إذ عرفتُك يا سلامة وفكرتُ فيك » .

فقالت سلامة فى دلال وقد ملكها الزهو : « إذنْ فلا حقَّ أن تلمزنى بأنى صرفتك عن الخير ! » .

فنظر إليها عبد الرحمن فى وداعة وصفاء ، وقال لها فى تؤدة وهدوءٍ : « إنى والله لأحار .. وإنى والله لا أدرى أشغلتنى يا سلامة عن الخير أم هديْتِنى إليه ! ولله فىّ وفيك إرادة هو بالغها .. إنى ما كنت أفكر فى الزواج حتى عرفتك ففكرت فيه ، وقد تزوج رسول الله ﷺ وقال : « النكاح سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » . وإنى كنت أتلو القرآن وأقرأ فيه آيات السماوات والأرض والنجوم فما أهتزُّ لها كما أهتزُّ لآيات الوعد والوعيد ، حتى عرفتك يا سلامة فصرتُ أخرج فى السَحَرِ وأصلى فى العراءِ لأتمتع بجمال النجوم وأنظر فى ملكوت الله . وإنى كنت أرى المجّان فأبغضهم وأقسو عليهم وأقول لنفسى : كيف يترك الله هؤلاء ؟ حتى عرفتك فصرت أرثى لهم وأعلم أن لله حكمةً فيهم كما قال فى كتابه : « ولو شاء الله

لهدى الناس جميعًا » .

وكانت سلامة ساكنة تستمع إليه فى خشوع كأنها تصغى لقارىء يرتل آيات الله . وسكت عبد الرحمن قليلا ثم تنهد وقال : « ولكن الناس يقولون فسق القس وشغفته جارية ابن سهيل حبا ».

فقالت سلامة : « دعهم يقولوا ما يشاءُون ، فوالله يا بن أبى عمار إنك لطاهر الذيل شديد المخافة من الله » .

فقال عبد الرحمن بصوت حزين : « أجلْ يا سلامة ، وهذا سر شقائى » .

وصمت عبد الرحمن برهة طويلة ثم أخذ يحرك شفتيه كأنه يعدُّ حديثًا ، فقالت له سلامة : « ماذا تجمجم يا عبد الرحمن ؟ » .

قال : « إنها أبيات هجمت على خاطرى » .

قالت : « أسمعنيها » .

فوضع يده على جبينه كأنه يستعين بذلك على استرجاع شىء نسيه ، وأنشأ يقول :

هوَاك يقارعُ التقوى بقلبى — فأشهدُ فيه حرْبَهما سجالا
وهل فى الأرض أشقى من محب — يذوب هوًى ولا يرجو نوالا ؟
ألا يا ليت ربِّى إذ هدانى — إلى تقواه جنبنى الضلالا !

وإلا فليُرحنى من صلاحى ... فإنى قد لقيت به النكالا
ستأتينى المنيَّة حين تأتى ... وتُسلمنُى إلى ربى تعالى
وما فى القلب يا سلامُ رجوى ... سِوَاكِ وأن تكونى لى حلالا

فطربت سلامة وهبت قائلة : « قيدها .. سآتيك بالدواة والقلم » . وناولته العود الذى فى يدها قائلة : « أمسك هذا » . وخرجت من المشربة منطلقة فى خفة الغزال ، فشيعها عبد الرحمن ببصره وهو يقول : « تبارك الله أحسن الخالقين ! » .

وأخذ ينظر إلى العود ويقلِّبه فى يده ويقول : « ويل لك يا مزمار الشيطان ، لربّما تهدى إلى عبادة الرحمن ! .

الفصل العاشر

لم يهدأ عبد الرحمن بقيَّة يومه ذاك ، فقد خرج من دار ابن سهيل ، فقصد المسجد فصلى الظهر ، ورجع إلى بيته لينام القيلولة كعادته يستعين بها على القيام ليلا للصلاة وللتعبد ، فاضطجع على فراشه وتقلب من جنب إلى جنب ، وستر وجهه بطرف ردائه يحجب عن عينيه الضوءَ لعلهما تغفوان ، ولكنهما ظلتا حيتين قلقتين ما تكادان تفلتان من سيطرة الإغماض حتى يرتفع جفناهما فإذا هما مفتوحتان ، فكأن جفنيهما قد شدا بخيوط وثيقة إلى قلبه الخافق المضطرب ، وفكره الهائم فى أودية الأحلام .

فكر عبد الرحمن فيما حدث له صبيحة يومه وفى موقفه من سلاّمة ، فحمد الله على أن نجا من فتنة الشيطان وكيده ، ولولا عصمة الله له ولطفه به لوقع فى الإثم ، فما كان بينه وبين أن يزل إلا أن يلين قلبه قليلا فتطغى عليه شهوته ، فإذا هو من الهالكين .

وتمثَّلت له سلاَّمة وهى تقول وقد احمرَّ وجهها وفترت عيناها :

« يا عبد الرحمن إنى أحبك » . فيقول لها هو : « وأنا والله يا سلاَّمة أحبك » . فتقول له : « وأشتهى أن أضع فمى على فمك » . فيقول لها هو : « وأنا أيضا أشتهى ذلك » .

فثاب عبد الرحمن إلى نفسه وجعل يكرر هذه الكلمة ، وأنا أيضا أشتهى ذلك ، ويقول : « ويل لى ! أاشتهيت أن أضع فمى على فمها ؟ أاشتهيت الحرام ؟ أاشتهيت الفسوق والإثم ، أهذا أنت يا عبد الرحمن ؟ أوَ قد بلغ الشيطان منك هذا المبلغ حتى تقول لجارية لا حقَّ لك فيها إنك تشتهى أن تضع فمك على فمها ؟ ماذا تركت للشيطان بعد هذا ؟ وماذا تخشى من الإثم والفسوق بعده ؟ سبحان الله ، كيف وقع هذا منه و لم ينفطر قلبه ندما على مافرط فى جنب الله ، و لم تبك عيناه دما ؟ لقد كان حسبه أن يمر مادون هذا بخاطره ليقشعر جسمه من خوف الله ، ويخجل من الوقوف أمامه للصلاة ، فكيف به وقد نطق به بلسانه ، وذهب عقب ذلك إلى المسجد الحرام ليمثل أمام ربه عند بيته المحرّم ، كأنْ لم يأتِ أمرا إدا ؟

ورجع عبد الرحمن إلى ماضيه ، يحن إلى تلك الأيام الصافية إذ كان فيها خالى البال راضى النفس مستريح الفكر ، ينام مطمئنًا ويقوم من نومه مطمئنًا ، ويقضى نهاره فى المسجد يذكر الله أو يتلو القرآن أو

يشهد مجالس العلم ، معرضا عن الدنيا ، صادفا عن باطلها وغرورها ، ساليا همومها ، مبتعدا عن مدارج الفتن ومسالك الغواية ، تاركا بعض ما يحل له من الطيبات خشية أن يقع فيما لا يحل له ، يجالس العلماءَ والصالحين ، لا يعرف أرباب النعمة والثراءِ ، ولا محبى اللهو والغناءِ ، وما كان يعرف من العود إلا اسمه ، ومن الغناء إلا أنه لهو يشغل عن ذكر الله ، ومن الشعر إلا أنه لغو من القول لا يليق بالمتقين .

فما عدا ممَّا بدا ؟ وما باله اليوم يقعد على الزرابى الوثيرة ، ويطأ على الطنافس الثمينة ، وينادم ابن سهيل على الغناءِ والشعر ، ويجلس عنده إلى قينة جميلة فاتنة يرى محاسنها ، ويستمع لحديثها ، ويستمتع بغنائها وتطريبها ؟ حتى سلبت لبه وشغفته حبًا ، فأبدلته بأنسه هما ، وبفراغه شغلا ، وبالسلامة خطرًا وفتنة . يا ليته كان استمع لنصح صاحبه الشيخ أبى الوفاءِ وعمل برأيه ، فقد كان أعرف منه بمكامن الخطر ومراتع الغىّ ومداخل الشيطان ومخارجه ، إذ نصحه أن لا يعرّض تقواه للتجارب متكلا على صمودها لهجمات الهوى ، وثباتها فى معارك الفتون ، لعلمه أن النفس أمارة بالسوءِ ، وأن ملاك التقوى الابتعاد عن مواطن الشر والفرار من أماكن الريبة ، وأن من حام

حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

ولكنه خالف هذا الشيخ الصالح الذى اجتهد بكل ما أوتى من قوة أن يصرفه عن هذا السبيل المحفوف بالخطر ، لا يبتغى بذلك إلا الخير له ، فلم يصغ إليه ، وآثر جانب الهوى على جانب التقوى متعللا بأنه يجد من دينه وفقهه ما يعصمه عن ارتكاب الزلة ، وينأى به عن الريبة . ومن رأيه وحسن تصرفه ما يصلح من أمره ويخرج به من ورطته ، ويجعل من ذلك الحب العارض سببًا إلى الزواج الثابت ، كأن الزواج لا يحسن إلا بالقينات ، أو كأن القينات أصلح لذلك من الحرائر ، أو كأن الزوجة لا تكمل إلا إذا أحسنت منادمة الرجال وحذقت فنون الغناءِ وأجادت الضرب على المعازف . أجل لقد ظلم هو أبا الوفاءِ إذ جزاه على نصحه القطيعة والهجران وهو يعلم حبه له ، وأنسه به ، وافتقاره إليه فى حاله تلك من العجز والكبر والمرض ، مهما انتحل لنفسه فى ذلك من المعاذير ، وتكلف تبرير موقفه منه بأنه إنما فعل ذلك ليريح الشيخ من جدال لاغناء فيه ، ويكفيه مشقة الإلحاح عليه بالكف عما لا يستطيع الكف عنه .

وانتقل فكر عبد الرحمن إلى سلاَّمة ، وتمثلها مرةً أخرى وهى تدنو منه وتراوده عن نفسه فى أول خلوة جمعتهما فى غيبة مولاها

الكريم الذى أحسن إليها ، وأنزلها من نفسه منزلة المُحَبِّ المُكرَّم ، فثار ثائره عليها ، وأخذ يسائل نفسه : هل تصلح جارية كهذه تخون مولاها الذى أحسن إليها هذا الإحسان كله ، أن تكون زوجة له يأتمنها على شرفه فى مشهده ومغيبه ؟ نعمْ إنه لم يزلّ بها و لم يجبها إلى مادعتْه إليه ، فَسَلم بذلك عِرضُها ، ونجَتْ من الإثم الكبير ، ولكنْ مافَضلُها فى هذا ؟ إنها قد دعتْه ولو أجابها لزلّتْ ، فكأنها بهذا قد زلّتْ . أم يغفر لها هذا لأنها ارتكبتْه معه و لم تأته مع غيره ، وهو من دينه وتقواه فى منعة من الإثم وعصمة من المنكر . كلا إن هذا لا يغير من سلوكها شيئًا ، ولا يجعل من منكرها معروفا . فحسبه أنه أجنبى عنها وأنها دعتْ هذا الأجنبى إلى ما لا يحل لها أن تدعوه إليه ، وحسبه أنها جارية لرجل وأنها خانت ذلك الرجل . ويلٌ له : أفى سبيل هذه الجارية باع راحته وطمأنينته ، وعرّض نفسه للتُّهم والأقاويل ، وقطع أسباب الصلة بينه وبين أصحابه الصلحاء ؟

وقف عبد الرحمن يتأمل هذا التحول العظيم فى حياته ، والفرق الشاسع بين ماضيه وحاضره ، فانتهى به هذا التأمُّل إلى ذلك اليوم الذى ذهب فيه ليعود أبا الوفاءِ فسمع فى طريقه ذلك الصوت الجميل من دار ابن سهيل فملك لبه ، فكان ذلك الغناءُ أصل ماجاءَ بعده من البلاءِ . ثم عاد عبد الرحمن فسأل نفسه : « ما ذنبه

فيما حدث ؟ أفى الحق أن يلام على أن ذهب لزيارة صديق له فسمع فى طريقه صوتًا فتنه فاستوقفه على غير قصد منه ، فاهتبلها صاحب الدار غرة نفذ منها إليه وملك بها مذهبه عليه واضطره بذلك إلى دخول منزله فكان ما كان . أكان فى وسعه أن يهرب من هذا القضاءِ الذى حم عليه ؟ لو أن ذلك كان فى إمكانه لقد كان . ألم يعصم نفسه بالتقوى لما راودته سلاّمة عن نفسه ؟ ألم يعص فيها الهوى حين أشرف به على الهلاك الأكبر ؟ ألم يَدُسْ على الشهوة التى كانت تتأجج فى صدره مخافة ربه ؟ بلى إنه فعل ذلك لأن ذلك كان فيما يملك. أمّا افتتانه بجمال صوتها وغرامه بها فكانا فيما لا يملك ، فحرٍ ألا يؤاخذه الله به وأن يتجاوز له عنه .

ثم ما هذه المحنةُ التى بلى بها ؟ أشرٌّ أريد به أم أراد به ربه رشدا ؟ أحقٌّ أن ماضيه خير من حاضره ؟ أليس من الجائز أن يكون حاضره خيرًا من ماضيه ؟ لِيوازِنْ بينهما فى شيء ليرى أيهما الراجح . كان فى ماضيه خالى البال راضى النفس مستريح الفكر . فما خلو البال ؟ أليس معنى من معانى الخواءِ والتعطّل ؟ ومارِضى النفس ؟ أليس مظهرًا من مظاهر إخلادها إلى ما هى فيه من النقص ووقوفها عن الحركة الدائبة إلى الكمال ؟ وما راحة الفكر ؟ أليس قصورَهُ وعجزه

عن أداءِ ماخُلق له من السَّبْحِ فى عجائب الخلق وآيات الخالق ؟

كان فى ماضيه يخشى الله ويتقيه ، ويبكى فى صلاته وقيامه ، فهل ذهبتْ عنه خشيةُ الله وتقواه ؟ أليست خشيته اليوم وقد حفَّت به الشهوات وتبرجت له الدنيا أعظم من خشيته أمس حين لم يكن فى متَقَلَّب عيشه ما يخشى الله فيه ؟ وهل رقأ دمعه إذا أجنَّهُ الليل وقام فى سكونه يناجى الله ؟ أليس بكاؤه اليوم أغزر من بكائه أمس ؟ ألم يَصِرْ قلبه أرق وحنينه أصدق وشعوره أعمق ؟

وكان زاهدًا فى الدنيا معرضا عن باطلها وغرورها ، ولكنْ أين زُهدٌ من زهد ؟ أين زهد الخبير بالدنيا المتمرس بآفاتها ، من زهد الجاهل بها البعيد عنها ؟ هو اليوم يغشى السوق ويشتغل بالتجارة ويتّقى الله فى ذلك كله ، فأنَّى يكون له فضلُ الأمانة والصدق فى المعاملة لو لم يقع فيما وقع فبه ؟

أما مجالسته لأصحاب اللهو والغناءِ فلم يتصل منهم إلا بابن سهيل . وابنُ سهيل رجلٌ سريٌّ طروب ، ولكنه على طربه متعفف عامر القلب بالإيمان ، قوّام بالصلاة لا يكاد يتخلف يومًا عن شهود الجماعة فى المسجد . وإذا ماهلَّ شهر رمضان انقطع عن اللهو وتفرَّغ للعبادة والصدقة ، حتى إذا كانت العشرُ الأواخر منه لزِم المسجد

واعتكف فيه بياض نهاره ، وأحيا لياليها صلاة وقرآنا . وهو بعدُ عطوفٌ على فقراءِ مكة وذوى الحاجة من أهلها ينفق عليهم فى السرِّ أكثر مما ينفق عليهم علانية .

والغناءُ الذى أغرمَ به عبد الرحمن ما هو وما أثره فيه؟ألم يفدْ منه ترقيقًا لقلبه وتلطيفًا لحسه ؟ ألم يقتبس منه تلك اللوعة التى يقوم بها للصلاة ، فإذا به يشعر كأنه روحٌ قدعتقت من رِقِّ الجسد ، وارتفعت عن الأرض فهامت فى السماءِ واتصلت بالملأ الأعلى ؟ ألم يأخذ عنه تلك الروعة التى يقرأ بها القرآن فإذا عوالِمُ من المعانى تتكشف لقلبه ، وإذا أبواب من المعرفة وألوان من الشعور وأطياف من الفكر ، وإذا الكون كتابٌ يتلى ، وإذا النظامُ الذى تقومُ عليه السماوات والأرضون لحنٌ أزلىٌّ خالد ؟

واستمر عبد الرحمن على هذا النحو يوازن بين حاضره وماضيه فيجدُ الرجحان لحاضره ، أو يميل قلبه إلى ترجيحه فيصدقه عقله ، فأحس عند ذلك بطمأنينة تنزل فى قلبه ، وشعر كأن شيئًا نفسيًا أوشك أن يضيع منه فاسترده ، وعاد له خيال سلامة باسمةً متطلقة كما رآها لأول مرة ، فحن إليها ، واستيقظت أمانيه ، وطفقت أحلامه تتراقص فى عينه !

ولكنه تذكر ذنبها غداةَ اليوم فاشمأزّ منها وأشاح بوجهه عن خيالها . ولكنَّ خاطرًا فى قلبه انتدب للدفاع عنها دونه من حيثُ لا يشعر هو ، فعرض عليه صورتها وهى تقول له : « يا عبد الرحمن إنى أحبك » فيجيبها هو بمثل قولها ، فتقول له : « وأشتهى أن أضع فمى على فمك »فيقول لها مثل ما قالت ، فتقول له : فما يمنعك فوالله إن المكان لخال ؟ » . فيذكرها هو بشهود الله ، فتكفُّ وتبكى ندمًا واستغفارا . فماذا فى هذا ؟ أفى الحق أن يكون ذنبها فيه أعظم من ذنبه ؟ أليس هو الذى دفعها إلى هذا الموقف إذ ألهب شعورها بشعره ، وأثار كامِنَ وجدها برقيق غزله ، وفتنها بما أودع فى أبياته من روحه ؟ وقد كانت أحبته ، فاعترفت له بهٖ ، وقالت له وقال لها ، فلما ذكرها الله تذكَّرتْ وندمت على ما كان منها . أفيحقُّ له أن يطالبها بأكثر من هذا الذى صنعته ؟ إنها كغيرها ليست معصومة من الذنب وقد أذنبتْ فاستغفرت . ومن يدرى لعل الله غفر لها ذنبها فيما دعته إليه من الإثم ، و لم يغفر له ذنبه فيما فَتَنها وحملها على ماصنعت . أفيغفر لنفسه إذًا ما لم يغفر الله من ذنبه ويؤاخذها بما غفر الله من ذنبها ؟ إنَّ هذا إذًا لَظُلمٌ عظيم .

وأفاق عبد الرحمن من أحلامه هذه حين ذكر صلاة العصر ؛

(سلامة القس)

فنهض ونظر فى الظِّل فعرف أن وقتها قد حان أو كاد ، فقام فتوضأ وأخذ زينته وخرج من بيته يقصد المسجد ، وقد اعتزم فى نفسه أمرًا ، وصمم على أن يسعى فى بيع ضيعته بالوادى فيقدم ثمنها لابن سهيل ليبيع سلامة ، ويستأنيه فيما يبقى عليه من الثمن ليقضيه له أقساطًا يجمعها مما يعود عليه من عمله فى التجارة ، وابن سهيل قد عرض عليه سلامة ليهبها له فلَنْ يعز عليه أن يجيبه إلى هذا الطلب ، ويقبل منه هذه التسوية على علاتها .

انقطع عبد الرحمن بضعة أيام عن زيارة ابن سهيل كان فى خلالها مجتهدًا فى السعى لبيع ضيعته ، حتى ذهب إليه ذات عشية ، وكانت الشمس قد مالت للغروب ، واكتست الدنيا حلُةً ذهبية من الأصيل كأنها تقول لعبد الرحمن وهو يرى لون الذهب فى كل شىء تقع عينه عليه : « ما أقل ما تحملُ من هذا فى صرتك ! » .

خف ابن سهيل وانطلق فَرِحًا لما استُؤْذِن لعبد الرحمن عليه بعد غيبة أيام رآها أطول من حقيقتها ، لما حدث له فيها من أمور كبيرة جعلته يودع عهدًا ويستقبل عهدًا ، فما إن رأى عبد الرحمن حتى عانقه عناقا حارًا عجب له عبد الرحمن إذ لم يألف من صديقه مثل هذا من قبل ، و لم تكن المدة التى غابها من الطول بحيث تقتضى مثل هذه

التحية البالغة عند اللقاءِ ، ولكنه لم يسعه إلا أن جامل صديقه فقابل عناقه بعناق مثله . ولو أن ابن سهيل نظر فى عينى عبد الرحمن إذ ذاك لرأى فيهما دلائل الاستغراب والتساؤل ، ولكنه كان من الشوق واللهفة للقاءِ عبد الرحمن بحيث لم تكن له معهما فرصة لملاحظة ما تتركه تحيته من الأثر فى صديقه ، فقد اندفع فى ذلك اندفاع الشقيق لقى شقيقه بعد غيبة حلَّتْ فى أثنائها كارثة بأحد يعزّ عليهما ، فاعتنقا متواسيين ! وسأله ابن سهيل عن سبب انقطاعه عن زيارته ؟

فأجابه عبد الرحمن قائلا : « كنت مشغولا يا بن سهيل » . فسأله ابن سهيل سؤال العاتب : « أى شغل يا عبد الرحمن ؟ » . فقال له : « بعت مالى الذى ورثته عن أبى بالوادي » . فعجب ابن سهيل و لم يفهم ماذا حمل صديقه على بيع ضيعته التى يعيش منها ، فقال وقدأخذتـهالدهشة : « بعته ؟ » فقال عبد الرحمن والخجل يعقد لسانه : « نعم .. وهذا ثمنه أتيتك بـه » . وأشار إلى صرَّة وضعها أمامه : « فهل لك أن تبيعنى سلامة يا بن سهيل » ؟ .

فشعر ابن سهيل كأن خنجرًا شكَّ فى صدره ، فتحامل على نفسه من الألم ، فقد شعر فى تلك اللحظة بعظم المحنة التى نزلت به من الحجر على أمواله ، حين رأى عبد الرحمن وقد باع ماله وأتاه يستعين

به فى سلامة فلم يقدِرْ على أن يحقق له أمله ؛ ولكنه تجلد واصطنع الهدوء وقال : « أبيعك سلامة ؟ كيف يا عبد الرحمن ؟ .. إنها قد بيعت أمس لرجل من المدينة من آل رمّانة وسيتسلمها عشية غد »

فانتفض عبد الرحمن وقال غاضبًا — وكأنه لم يصدق ما سمع : « أوَ قد فعلْتها يا بن سهيل ؟ » .

فأجابه ابن سهيل بلهجة تسيل حنانًا ورقة : « لست أنا الذى بعتُها يا بن أبى عمار ، وإنما باعها عنى القاضى .. لعلك لم تعلم أنهم حجروا على حجر تفليس ، وقوّموا كل ما أملك ، حتى هذا القصر الذى أسكنه ، ليقُسم على دائنى » . وتوقف هنيهة ثم قال : « ولقد توسلت إليهم أن يتركوا لى سلامة ، فلم يفعلوا » .

فوجم عبد الرحمن لحظة ذهب فيها فكره كل مذهب . ثم قال : « أليس فى وسعك أن تحمل القاضى على أن يبيعها لى ؟ » .

فقال ابن سهيل : « لا أحسب الرجل المدنى يا عبد الرحمن يتنازل عن صفقته ، فهو من عشاق الغناءِ ، وقد سمع بأنها تجيده ؛ فأغلى ثمنها حتى دفع فيها تسعمائة دينار ؛ فكم عندك من المال ؟ » .

فأجابه عبد الرحمن بصوت خافض : « مائتان وخمسون دينارًا » .

قال ابن سهيل : « يا ليتك يا عبد الرحمن قبلْتها هبةً منى حين عرضتها عليك » !

فتنهد عبد الرحمن قائلا : « ليت ذلك كان . والله ما منعنى من قبول ذلك إلا أنك كريم ، وقد بلغنى أنك قد وقعت فى ضيق ، فلم أشأ أن أرزأك فى مالك ، والله إنى لأحبها حبًا فالقًا كبدى ؛ وما منعنى أن أشكو بثّى إليك إلا حيائى منك » .

فاغرورقت عينا ابن سهيل بالدمع وقال : « إن لهذه الجارية نفاسة عندى ، وقد رأيتُ كلفك بها وكلفها بك فأحببت أن أوثرك بها على نفسى ؛ ولا أكتمك يا عبد الرحمن أنى قد كنت أشعر أنهم سيحجرون علىَّ يومًا ما ، ولكنى ما كنت أظن أن الحجر سيمضى علىَّ بهذه السرعة ، ولو قد علمت ذلك لأعتقتُ رقبتها فلا يجدون إليها سبيلا .

فبكى عبد الرحمن وقال بصوت تخنقه العبرة : « ما أدرى والله يا ابن سهيل أأبكى لمصابى أم أبكى لمصابك » .

فقال ابن سهيل وقد مسح دمعة كبيرة تدحرجت على خده ، وتظاهر بالجلد والشدة : « خفض عليك يا عبد الرحمن ، فسيجعل الله لك من العسر يسرًا . إنى أكبر سنا منك وقد بلوت من هذا الأمر

ما بلوت ، فوجدتُ أن لكل شيء نهاية .. حتى هذا الحب الذى يفلق الكبد ، ويحرق حجاب القلب ، نهايته السلوان » .

فقال عبد الرحمن وقد ظهرت عليه دلائل العزم : « لقد علمت أني لن أسلوها ما حييتُ ، ولكنى سأعتصم بالصبر حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولا . فهل لك أن تجيبنى إلى رجاءٍ لا يثقل عليك إن شاء الله ؟ » .

قال ابن سهيل : « اطلب ماشئت فوالله لا أمنعك شيئا أقدر عليه ! » . فتناول عبد الرحمن الصرة فقدمها له قائلا : « اقبل هذه منى تستعين بها على بعض شؤونك ، حتى يجعل الله لك من ضيقك مخرجا » .

قال ابن سهيل بلهجة حازمة : « أما هذا يا عبد الرحمن فلا ، إنك لأحوج إليها منى » .

« كلا يا بن سهيل إنى فى غنى عنها ، فإنى أكسب من عملى فى السوق ما يزيد على حاجتى » .

« منذ كم عملت فى السوق يا عبد الرحمن ؟ » .

« منذ عرفتكم يا آل سهيل » .

فابتسم ابن سهيل ابتسامة يخلطها الأسى ، وقال إنك لأكرم منى

يا عبد الرحمن . عرضتُ عليك بعض مالى فامتنعت ، أفلا أمتنع أنا وقد عرضتَ علىّ كل مالك ؟ .

فتنهد عبد الرحمن قائلا : « إن الدنيا كلها لا تساوى سلامة فى عينى » .

قال ابن سهيل : « فما الذى منعك من قبولها إذ عرضت عليك ؟ .

فقال عبد الرحمن وكأنما اقتطعها من قلبه : « الشّقوةُ التى غلبَت علىَّ » .

سكت ابن سهيل لحظة كأنه يفكر فيما عرضه عليه عبد الرحمن ثم قال : « لا يا بن أبى عمار ، أمسك عليك مالك ، فلو قبضته منك لاستحقه الدائنون .. وبعدُ فإنى أشكرك وأعرف لك فضلك » .

فتأوه عبد الرحمن وقال : « وارحمتاه لك يا بن سهَيل ! » .

كان لهذه الكلمة وقعُها عند ابن سهيل ، فعادت له رقته وغلب عليه البكاءُ وهو يقول : « الله لى ولك يا عبد الرحمن ! إنى والله ما آسف على شيء فاتنى من هذه الدنيا إلا أن فى مكة بيوتًا لأرامل ويتامى لا عائل لهم كنت أنفقُ عليهم ، فما أدرى والله ماذا يكون حالهم بعدى !» .

فقال عبد الرحمن : « ما أكرمَك يا بن سهيل ! ما ينبغى لكريم مثلك أن لا يكون عنده مالٌ ينفق منه ! » .

وأحبَّ ابن سهيل أن يصرف الكلام عن نفسه ، وتذكر سلامة وقدَّر فى نفسه أن عبد الرحمن كان يريد السؤال عنها فمنعه الحياءُ : « ألا تحبُّ أن ترى سلامة قبل رحيلها يا عبد الرحمن ؟ » .

فخفق قلب عبد الرحمن وقال والحياءُ يعقد لسانه : « بلى يا بن سهيل » .

« إذًا فأتنا غدًا فى الصباح لنتغدّى معًا ونقضى يومًا سعيداً » .

وكأن عبد الرحمن استبعد هذا الموعد ، فهو يريد أنْ يراها فى تلك الساعة ، وليس فى وسعه أن ينتظر إلى الغد ، وخُيِّل إليه أن غدًا جِدُّ بعيد ، وخشى أن تجدَّ أمور فتحول دون رؤيتها فقال : « شكرًا لك يا بن سهيل ، سآتى غدًا إن شاء الله ، ولكن أين سلامة الآن ؟ » .

فأجابه ابن سهيل : « أحسبها ذهبت لتودع صواحبها ومعارفها .. أتحِب أن تنتظرها حتى تعود ؟ » .

فاستحيا عبد الرحمن أن يقول له نعم — وكان بوده ذلك — وتذكر صلاة المغرب فقال : « لا يا بن سهيل ، بل تأذن لى بالانصراف » .

قال ابن سهيل : « على أن تأتينا غدًا » .

قال عبد الرحمن : « إن شاء الله » .

الفصل الحادى عشر

خرج عبد الرحمن من عند ابن سهيل فقصد توًّا إلى المسجد فصلى المغرب ، ثم طاف بالكعبة ما شاء الله أن يطوف ، وهو فى ذلك شارد اللب ذاهل الحِس تجيءُ به الخواطر وتذهب ، كأنما قد أُلقِىَ منها فى بحر لجىٍّ يتلاطم عُبابه ، وتصطخب أمواجه ، فهو منها فى كبدٍ ، ترفعهُ موجة وتهبط به أخرى ، ويرى الناس يقومون ويقعدون ويطوفون ويصلون وكأنه يرى أخيلة تتراقص أمامه ، وأشباحًا تضطرب من حوله ، ويتصفح وجوههم فينكرها ولا يكاد يعرف فيها وجهًا . ويعود إلى نفسه فيتلمس جسمه كأنه يشك فى موقفه ذاك ويريد أن يتبين أحىٌّ هو يضطرب بين الأحياء ، أم ميتٌ قد بعث مع الأموات فى يوم الحساب ! .

نسىَ عبد الرحمن فى ذلك الموقف كلَّ شىء ، وشكَّ فى كل شىء ، وشعر بالخوف والاستيحاش من كل شىء ، فكأنما خرج من هذا العالم إلى عالم جديد لاصِلة له به ، ولا عهد له به من قبل . أهذا

هو المسجد الحرام الذى كان يغشاه صباحَ مساءَ منذُ عَقَلَ نفسه ؟ أهذه هى الكعبة التى يصلى إليها ويطوف بها ويدعو أمامها مرارًا كل يوم ؟ أهو عبد الرحمن بن أبى عمار الذى لقبه أهل مكة بالقس ؟ أفى يقظة هو أم نائمٌ تتلاعب برأسه الأحلام ؟ وينظر إلى الصرة التى يحملها معه فلا يدرى ما هى ولماذا يحملها ويحتفظ بها ؛ ويسمع أذان العشاء فلا يعى منه إلا مايعيهِ المجهدُ من حديث القوم قد غلبه النعاس بينهم !

وأقيمت الصلاة فقام مع القائمين وصلى مع المصلين،ثم خرج من المسجد مع الخارجين ، وحملته قدماه من حيث لا يشعر إلى حيث انتهى إلى باب داره ، ففتح الباب ثم أغلقه عليه ، وصعد إلى غرفته ورمى بنفسه على فراشه فوقع جنبه على الصرّة التى كان يحملها فى يده ، فأحسَ بألم شديد أيقظه من غمرته ، فجعل يبحث عن مصدر الألم فوجد الصرَّة فرفعها ونظر إليها مليًّا فتذكر !

تذكر الضيعة وكيف باعها ولِمَ باعها ، وتذكر سلامة وكيف عزَّتْ عليه ويئس منها وكان يراها إلى أمس القريب أملا سهل التحقيق دانى المبتغى لوثوقه بكرم ابن سهيل وعطفه عليه وحبه لمساعدته . ولكن ويح ابن سهيل ! لقد حُجرَ عليه بالتفليس وبيعت أملاكه وأمواله

و لم يبقُوا حتى على قصره الذى يقيم فيه وجاريته التى يؤثرها ، فأصبح بعد ذلك الثراءِ الواسع والنعمة السابغة ، والموائد المنصوبة للضيوف والمجالس العامرة بالأنس والغناءِ والندماءِ من المغنين والشعراءِ ، فقيرًا لا يملك أن يسعد صديقًا عزيزًا عليه . أو ينفق على أهل بيتٍ أخنى الزمان عليهم !

تذكر عبد الرحمن صديقه ابن سهيل وخفوفه العشية للقائه فرحًا كأنه يستقبله من سفر طويل ، فعرف الآن لماذا عانقه ذلك العناق الحار وحياه تلك التحية البالغة التى لم يفهم هو مادعاه إليها ، فلم يزد على أن اصطنع تحية مثلها وتكلفها مجاملة له . ولو قد علم بما كان يعتلج فى صدره عند لقائه ذاك ، وأنه كان يعلن بذلك شكواه ويستجديه الإسعاد والمواساة ، لما وقف منه موقف التعجب والتردُّد ، ولاندفع يعانقه بكل قوة وحرارة .

واستعاد صورة صديقه وهو يذرف تلك الدموع الغالية التى لم يجد بها قبل اليوم قطُّ ، فحزَّ الأسى فى صدره ، إذ ذكر أن هذا الصديق لم يبكِ لمصاب نفسه وإنما بكى فى المرة الأولى لمصاب عبد الرحمن حين شكا إليه كلفه بسلامة ، وبكى فى المرة الثانية لأولئك الأرامل واليتامى الذين كان يعولهم وينفق عليهم فلا يدرى ماذا يكون

حالهم بعده . فعجب من صبر صديقه وإيثاره ، ومن جزعه هو وأثرته ، فشعر باحتقار شديد لنفسه ، وازداد إعجابًا بصديقه وإكبارًا لمكانه .

والتفت ذهنه إلى موعد الغد فخفق قلبه لذكر سلامة ، ونهض عن فراشه كأنه يتهيأ للقائها ، وطفق يخطر بين أركان الغرفة جيئة وذهابا كأنه يستبطىء الغد ويريد أن يقطع الزمن الحائل بعدُ بينه وبين رؤية سلامة . إنه لن يراها غدا كما كان يراها قبلُ ، فهذه آخرُ رؤيةٍ ربما لا يراها بعدها أبدا . يا ويح قلبه ! أيكون الغد آخر عهد بسلامة ؟ يالله ؟ ما أعظم أن يتصور هذا وأشده عليه ! كيف يسلو وجهها الجميل ؟ وكيف يصبر على الحرمان من سماع صوتها العذب ؟ أيقضى بقية حياته لا ينعم فيها بنظرة ولا يحظى منها بسماع ؟

ويعود فيسلى نفسه بأنه سيراها غدًا بعدُ ، ويجلس إليها ويسمع صوتها ، وهذه نعمة لاتقدَّر بثمن ولا يقوم بها شكر . ألم يكن جائزًا أن يغيب يومه ذاك ويوما آخر عن ابن سهيل فلا يأتى إليه إلا بعد رحيل سلامة فلا يودعها ولا يراها أبدا ؟ حسبُهُ أن يتصوَّر هذا ليوقنَ أنه بخير بعدُ ، وأنَّ مصيبته لم تصل إلى نهايتها . ومنْ يدرى ماذا يأتى به الغد ، وإن فى يوم واحدٍ لمتنفَّسا ، فربما تَعنُّ فيه من الشؤون مايردُّ

الأمل إلى اليائس والفرج إلى المكروب ؛ ثمَّ ماذا يحمله على اليأس من سلاَّمة ، حتى بعدَ رحيلها إلى المدينة ؟ أليس الله قادرا على أن يحقق أمله فيها فى يوم من الأيام بسبب من الأسباب ؟ لعل الله يفتح عليه أبواب رزقه ، وييسر له الغنى من كسبه ، فيبتاعها من مولاها الجديد بما يرضيه من المال .

وما لمع هذا البصيصُ من الأمل فى نفس عبد الرحمن حتى احتفل له وغُنى به ، وما زال به يَغذُوه ويفسح له حتى نما فملأ بالضياء جوانب نفسه . وأحس عند ذلك برغبةٍ ملحَّةٍ فى التنفيس عن ذاتِ صدره ، وارتاح لقول الشعر فقضى حينا من الليل يعالجه ويتصيده ، ويرضى منه ما يرضى ويحذف منه ما يحذف ، وهو فى خلال ذلك يضطرب بين اليأس والرجاءِ ، والانقباض والارتياح ، وينتقل من الحاضر إلى الماضى ، ومن الماضى إلى الحاضر ، يتردد بينهما وبين المستقبل ، ويفكر حينًا فى نفسه وحينًا فى سلاَّمة وحينًا فى صديقه ابن سهيل ، ولكنَّ خيال سلاَّمة كان يسيطر على فكره فى ذلك كله ..

لم ينم عبد الرحمن ليلته هذه بل وصل سُهده بتهجُّده ، وبكى فى قيامه للصلاة ماشاء الله أن يبكى ؛ ودعا الله ماطاب له من الدعاءِ ، ومكث كذلك حتى صاح المؤذن بالفجر .

ولم يكدْ يضحى النهار حتى كان عبد الرحمن جالسًا إلى الخوان فى دار ابن سهيل ، وقد بسطت عليه المائدة فيها أصناف الطعام ، والفاكهة . وجلس ابن سهيل عن يمينه وسلامة أمامهما . وكان أثر السهر باديًا فى عينى عبد الرحمن وإن لم يبد عليه أنه متعب . وقد لبست سلامة أحسن ثيابها ولكنَّ فى وجهها شحوبًا كأنما نقهت من سقم ، وفى حركاتها فتورًا لا عهد لذلك الجسم المرح النشيط به ، وهى لا تنظر لوجه عبد الرحمن إلا مسارقة كأنها لا تقوى على قراءَة آيات الأسى البادية عليه . ولم يعد لابتسامتها إذا هى ابتسمت — ذلك الإشراق الحيُّ الفائض كأنه ذوبٌ من النور يتفجر ! حتى نونتاها فارقهما ذلك الرونق والرُّواءُ ، فكأنهما نقرتان فى أعلى الجبل لفحهما حر الصيف فجفّ ماؤهما الصافى الشم ! أما ابن سهيل فكان أمرح الثلاثة ، وأطفحهم وجها بالبشر ، كأن الأيام لم تغير له حالا ، ولم تنل منه منالا ، وكأنه ما زال فى غناه ونعمته ، فهو يقبل على الطعام بنفس طيبة ، ويقدمه لضيفه ويباسطه ، ويضاحك جاريته ويمازحها ، وهو فى ذلك كله يرسلُ نفسه على سجيتها بحيث لا يشعر جليساه أنه يصطنع ذلك أو يتكلفه ، ولولا ما يساورهما من الحزن ويحزُّ فى صدرهما من الألم ، لظنَّا أنفسهما بمجلس ابن

سهيل فى يوم من أيامه السالفة .

وانتهوا من الطعام فقال ابن سهيل والصحاف ترفع وهو يبتسم : « أخشى أن تكون المائدة دون مايقتضيه توديع سلامة وضيافة عبد الرحمن ! » .

فقال عبد الرحمن : « يرحمك الله يا بن سهيل ، ما كان لك أن تتكلف كل هذا ، فأقلُّ من هذا كان يغنى » .

فقال ابن سهيل : « لا بأس يا عبد الرحمن ، إنى ألبس لكل حالةٍ لبوسها ، وللضرورة أحكام » .

فنظرت إليه سلامة نظرة مشفقة وقالت : « ملأ الله يديك بالخير يا مولاى . لقد كانت موائدك مضرب المثل فى مكة ! » .

فأجابها ابن سهيل قائلا والابتسامة باقية فى ثغره : « نعم كانت كذلك يا سلامة . أما اليوم فإنى لم أستطع أن أعِد مائدة تليق بتوديع جاريتى الأثيرة عندى ، الكريمة علىَّ » .

قالت سلامة : « هوِّنْ عليك يا مولاى . ستعود أيامك كما كانت إن شاءَ الله » .

« أجلْ ربما تعود . ولكنك لن تعودى إلينا يا سلامة ! » .

« لا تقل هذا يا مولاى . فمن يدرى لعل الله أن يعيدنى إليك » .

فتحرك عبد الرحمن عند سماع هذا وقال : « والله لأجتهدنَّ فى الكسب حتى نستعيدك إلينا يا سلامة ، ونعطى آل زمُانة ما يشتهون من المال ! » .

فقال ابن سهيل : « إن هذا آخر مجلس لنا معك يا سلامة ، فلا نكدِّرْ صفوهُ بالأسى والتحسر ، فهات عودك وأطربينا بارك الله فيك » .

فقامت سلامة وهى تمسح الدموع عن عينيها ، وذهبت تحضر عودها ، فلما عادت غنَّتْ لهما أغانىَ شتى معظمها من شعر عبد الرحمن ، فكانا ربما صاحا من الطرب ، وربما بكيا ، وربما استعاداها بعض الأبيات لشعورهما أنهما لن يسمعاها بعد ذلك اليوم من فم سلامة !

وفى خلال ذلك أخرج عبد الرحمن صحيفة من جيبه . فلمحها ابن سهيل فقال : « ما هذا يا عبد الرحمن ؟ لعلك قلت شعرًا جديدًا » .

قال : « نعم . صنعته البارحة » .

فمد إليه ابن سهيل يده قائلا : « أرنيها » . فناوله عبد الرحمن الصحيفة فنظر فيها فابتسم قائلا : « هذا جميل والله » .

ونظرت إليه سلامة كأنها تستطلعه ما فى الصحيفة وقالت : « أهذا شعر جديد قاله عبد الرحمن ؟ » .

فأجابها ابن سهيل ضاحكا : « نعم . وفيك أيضًا يا سلامة ! » .

فتهلل وجهها سرورًا وقالت : « ألا تقرأه لى يا مولاى ؟ » .

قال ابن سهيل : « بل تقرأه أنت يا عبد الرحمن » .

فلم يمتنع عبد الرحمن وأخذ الصحيفة فقرأ .

ألا قل لهذا القلبِ هل أنت مبصر ؟
وهل أنت عن سلامةَ اليوم مقْصِرَ ؟
ألا ليت أنِّى حين صارت بها النَّوى
جليسٌ لسلْمى كلما رنَّ مزْهرُ !
فياراكبًا إمَّا بلغتَ لطيبة   وضمك واديها الأغر المنوَّرُ
فخذْ ربوة واقرأ تحية عاشقٍ   له فى مغانيها من الأنسِ جؤْذَرُ
أقول لقلبى كلما زاد خَفْقُه   إلام يعنِّيكَ الأسى والتذكر ؟
تصبَّر ! فصاح القلبُ هبْنى احتملته
بصبر فما يُجدِى علىَّ التصبرُ ؟
خذا الزاديا عيْنىَّ من نورِوجهها   فما لكما فيه سوى اليوم منظرُ !

غدا تُتعِبان الجيدَطُولَ تَلفت فيَعيى ويطغى المدمع المتفجر
تريدان فى وجه الحبيبة نظرةً ومن دون مثواها نجود وأغوُرُ !

ولم يكد عبد الرحمن يتم الأبيات حتى سال دمعه وعلا نشيجه ، فبكى لبكائه ابن سهيل ، ورمت سلامة عودها وجلست تنتحب .

وبكى الثلاثة أصدق البكاءِ وأحرَّه ، وكأنما كانوا من أول الأمر بحاجة إلى هذا البكاءِ يفرِّجون به عن كربهم الحبيس ولوعتهم الدفينة ، ولكنهم ظلوا يُدارِى بعضهم بعضًا ويكاتمه ما فى صدره ، ويصطنع الجلد والصبر إشفاقاً على صاحبيه ورحمة بهما ، حتى حصحص الحق وظهر المكتوم ، حين نفذ الشعر إلى سرائرهم فهتك عنها الستر وكشف الغطاءَ ، وأرى بَعْضها حقيقةَ بعضٍ وقال لها :

« أيتها النفوس المكلومة التى جمعها المصاب ، هذا أوان بكائِك فاجتمعى عليه ! » .

وكان عجبًا أن يكون أجلد الثلاثة — ابن سهيل — أشدَّهم حينئذ بكاءً ، وآخِرَ من رقأ دمعه وانقطع نشيجه ، وأن يكون أجزَعهم وهو عبد الرحمن أول من نَهنَه دمعه وأنشأ يواسى صاحبيْه ويسليهما حتى تعزيا وانقطعا عن البكاء .

قال عبد الرحمن فيما قال لسلامة : « ألا تعملين لهذه الأبيات

لحنا ؟ » فأجابته سلامة وهى تكفكف دمعها قائلة : « سأعمل لها يا عبد الرحمن ، سأعمل لها » .

فقال ابن سهيل : « ولكنا لن نسمعه يا سلامة .. إلا أن يرِدَ علينا به أحدُ القادمين من قِبَل المدينة » .

قالت سلامة : « أترى أهل المدينة يَقدمون بأغانىَّ وعندهم أغانى جميلة ؟ » .

فقال ابن سهيل : « وما يدريك يا سلامة ؟ لعلك حين تلقين جميلة وتأخذين عنها فنها ، تفوقين عليها فتكونين كبيرة مغنيات المدينة ! » .

فبدا السرور فى وجه سلامة حين ذكرت أنها ستلقى جميلة عما قريب فتأخذ عنها الغناءَ ، ولكنها عادت فتذكرت أنْ لا حق لها فى أن تبتهج بشىء يبعدها عن مولاها ابن سهيل وحبيبها عبد الرحمن ، فاجتهدت أن تخفىَ هذا السرور الطارىء وتصطنع ما كانت فيه منذ الساعة من الأسى .

و لم يفت ابن سهيل ما دار بخلد الجارية فقال لها : « إنك لن تحسى يا سلاَّمة من ألم الفراق ما نحسه . لأنك سترحلين إلى طيبة التى طالما اشتقت إليها ، وسترين العقيق الجميل وتشهدين به مجالس الغناءِ

الممتع ، وحسبكِ أن تلقىْ جميلة التى طالما أعجبت بغنائهـا ، ونازعتك نفسك إلى رؤيتها والأخذ عنها . أليس كذلك يـا سلامة ؟ » .

و لم يَرُقْ هذا القول عبد الرحمن وودَّ لو استطاع تكذيبه ، كأنه ينكرُ على سلامة أن تجد لها ما تتسلى به عنهما فى المدينة ، ولكنه لم يجد ما يقوله فى ذلك فلزم الصمت .

أما سلامة فقد شعرتْ بخطئها فيما بدا منها من السرور فى موقف لا يجدر بها ذلك فيه ؛ فما كان ينبغى لها أن تؤثر محبتها للغناء وكلفها بإجادته على حبِّ البقاء عند مولاها الكريم . ولئن كان ذلك صادرًا عن نحيزتها التى لا تقاوم ، فعليها على الأقل أن تجتهد فى كتمانه فلا ينم وجهها عنه فى مثل هذا الموقف . ولهذا أجابت مولاها قائلة : « معاذ الله يا مولاى أن يكون فيما ذكرت ما يخفف عنى ألم فراقكم . إنما كنتُ أحب أن أرى المدينة وأهلها وأنا فى يمينك يا مولاى ! » .

و لم تكن سلامة صادقة كل الصدق فيما قالت ، فقد كانت الرغبة الفنية طاغيةً عليها طغيانًا قد تشفقُ منه على بعض ما يعز عليها من آمال قلبها ، وتخشى أن ينسيها أعز ما تصونه من عواطف الحب



أيتها النفوس المكلومة التى جمعها المصاب ،

هذا أوان بكائك فاجتمعى عليه .

الفصل الثانى عشر

قدمت سلامة المدينة واحتواها قصر مولاها الجديد ابن رمُانة ، فنزلت عنده منزلا كريمًا ولقيت منه كل بِر وعناية . ذلك أنه كان قد سمع بمكانها فى الغناءِ ونبوغها فيه ، فلما بلاها وجدها فوق ما سمع ، فقر ففرح بها فرحا عظيما وأجلها وعرف لها قدرها ، وأعلى منزلتها بين غيرها من جواريه الكثر . وعلق عليها الآمال الكبار .

وابن رمُانة هذا رجل جاوز سن الشباب . قضى سنيه الأولى تاجراً يتردد بين المدينة والشام حتى جمع له من ذلك ثروة لا بأس بها . وكان فى خلال ذلك مولعًا بالغناء والعزف ، وقد اشتغل بهما حتى برع فيهما . وكان مما ساعده على ذلك حسن صوته ، وخفة يده ، وقوة عزمه ، وجلده على العمل . وقد جره حبه للكسب إلى أن يتخذ من بصره بالغناء سببًا من أسباب التجارة ، فأخذ يبتاع الجوارى بأثمان رخيصة فيعلمهن الغناءَ ، حتى إذا برعن فيه باعهن بأثمان كبيرة ، فربح من عمله هذا مبلغًا كبيرًا من المال أغراه بالتوسع

فيه والتفرغ له ، فهجر لذلك تجارته الأولى . وقد أكسبه طول المران خبرة بالجوارى يتوسمهن فيعرف أيهن أصلح للغناء وأرجى أن يتقدمن فيه ، فكانت له نظرة صائبة قلَّما تخونه فى هذا الشأن . وكان يستعين ببعض جواريه اللائى قد تقدمن فى الغناءِ وبرعن فيه فيعلمن الجوارى الجدد حتى تقدم عمله ، فكان بعد ذلك ربما استعان فى تعليمهن ببعض المغنين والمغنيات وجعل لهم على ذلك أجورا كبيرة ، ولا سيما حين يتوسم فى بعض جواريه استعدادًا كبيرًا للنبوغ .

قضت سلامة أيامها الأولى فى المدينة وقلبها بمكة ، خلفتْه عند مولاها الكريم ابن سهيل ، وحبيبها عبد الرحمن بن أبى عمار : فقد ظلت تذكرهما ليل نهار ، وتتصور ابن سهيل وقد رقَّ حاله ، وفقد ثروته ، وأصبح فقيرًا معدمًا لا يملك حتى دارًا يسكنها بعد ذلك الغنى الواسع والنعيم الكبير ، وتتمثل عبد الرحمن وقد برح به الوجد ، وأضناه السقم ، ولم يجد إلى العزاء سبيلا . تذكر هذا كله فإذا قلبها ينفطر من الحزن ، وإذا صدرها ضيّق حَرج كأنما يصعَّد فى السماء ، فلا تجد أمامها ملجأ إليه إلا الدموع .

ولم يخْفَ على سيدها الجديد ما هى فيه من الكرب وما تعانيه من الشدة ، وكان قد علم بحديثها مع القسّ وغرامها به ، إذ استفاضت

أخباره بمكة حتى انتهى بعضها إلى المدينة ، فرأى من الحكمة أن يعاملها بالرفق ، ويأخذها بالحسنى ، ويتغاضى عما يبدو منها فى ذلك حتى تسلوه من ذات نفسها بمرور الأيام .

وقد أثمرت هذه السياسة الحكيمة الثمرة المطلوبة ، إذ ساعدت سلاَّمة على السلوان ، كما ساعدها على ذلك ما استيقظ من حبها القديم للغناء ، وكلفها بالتبريز فيه ، فقد رأت مغانى العقيق التى طالما هفا قلبها إليها ، وعاشت فى جو يختلف عن جو مكة بحسنهِ واعتداله ، وبين قوم يختلفون عن أهل مكة برقتهم ودماثتهم واحتفائهم بالغناء ، وولعهم به ، وتقديرهم لأقطابه ونوابغه .

وكأنما سلامة قد خلقت للغناء ، وكأن فى أعماق نفسها صوتًا يحدوها دائما للنبوغ فيه ، ويسوقها إلى بلوغ أعلى درجاته من الكمال . وقد تنزل بها أحداث الدهر ، وتلُم بها شواغل الحياة، فتُخفتُ هذا الصوت فى ضميرها حينامن الزمن لايلبث بعد انقشاع الغمة أن يعود حيًّا كما كان ، أو أقوى مما كان ، وقد تبلِّغ من هذه الظروف والمحن ، واتخذ لنفسه منها زادا ووقودا — أنها أحبت عبد الرحمن ، هذا حق لاريب فيه ، ولكن أكانت تؤثر حبه على فنها ، أم تؤثر فنها عليه ؟ هذا موضع للشك ، ومن يدرى لعلها ماصانت حب

عبد الرحمن وأعزّته ، وأولتـه جـانب الرعايـة ، وغذتـه بآمـالها وأحلامها ، إلا لأنها وجدت فيه غذاءً شهيًا لهذا الجنين الشره فى أحشائها .. جنين الفنّ !

وكانت سلامة أعرف الناس بقدرها ، فما كان الغرور ليجد سبيلا إلى نفسها فيعميها عن تبين ما فيها من مواضع النقص لتسدها ، كما أنَّ تواضعها لم يكن ليصرفها عن الطمع فى مقام يؤهلها لـه استعدادها العظيم . من أجل هذا ما كادت تسكن إلى مولاها الجديد حتى اقترحت عليه أن يبعثها إلى جميلة لتأخذ عنها ، وتتدرب على يديها ، فصادف هذا الاقتراح هوى فى نفسه . وكان ابن رمانة يعرف جميلة ويعجب بفنها ، وطالما اختلف إلى مجلسها يستمتـع بغنائها حتى اتسع عمله ، فحالت بينه وبين ذلك كثرة أشغاله . وهذه فرصة سنحت ليجدِّد بها العهد ، ويزورها فى منزلها مـع سلامةجاريته .

وما استأذن عليها ضحًى حتى فرحت به وأذنت له ، وكانت جالسة وبين يديها عدد من الجوارى بأعوادهن تدربهن على الغناء ، فنهضت له واستقبلته استقبالا حسنا .

قال لها ابن رمانة : « كيف أنت يا جميلة ؟ » .

فقالت : « بنعمة الله يا بن رمانة ... وأين أنت فلم نرك منذ زمان ؟ » .

قال لها : « مشاغل الأيام يا جميلة صرفتنا عن مجالسك الممتعة » .

ونظرت إلى سلامة فقالت لابن رمّانة : « أهلا بك وبمن معك .. من هذه التى جئت بها ؟ » .

فأجابها قائلا : « هذه جاريتى سلامة التى اشتريتها حديثا من مكة .. جئتُ بها إليك لتأخذ عنك فنون الغناء » .

فجعلت جميلة تتأمل فى وجه سلامة ثم قالت : « أهذه سلامة القس ؟ » .

فاضطربت سلامة وبدا التأثر على وجهها ، وابتسم ابن رمانة قائلا : « أجلْ هى سلامة القس » .

فقالت جميلة : « مباركة عليك .. لقد ظفرت بجوهرة ! » .

فسألها ابن رمانة : « هل كنت عرفتها ؟ » .

فأجابته قائلة : « لقد سمعتُ بعض ألحانها فأعجبتنى ، وما أحسبها بحاجة بعدُ إلىّ » .

فقالت سلامة وقد تضرج خداها خجلا : « كلا يا مولاتى إنى بعدُ بحاجة إليك ، ومن ذا يستغنى عنك وما تعلمتُ الغناءَ إلا من

ألحانك » .

قال ابن رمانة : « إنها تلميذتك وهى شديدة الإعجاب بك ، ومايسرُّها شيء فى المدينة كما يسرها أن تراك وتتلقى عنك » .

فقالت جميلة وقد ملكها الزهو : « أجل إنها تسير على طريقتى ، ولكنها تضيف إليها شيئا من مذهب غيرى . على أنى أتوقع لها مستقبلا عظيما فى هذه الصنعة » .

فشكرتها سلامة على حسن رأيها فيها ، فقالت جميلة وهى تضحك : « إنك لن تقيمى عندنا طويلا حتى تتخطفك قصور أميَّة بالشام » .

وكان لهذه الكلمة وقع شديد عند سلامة ، إذ أثارت على غرة منها أمنيةً قديمة دفنتها الأيام فى نفسها ، فشعرتْ بهزة طرب ، وتذكرت فى نفس الوقت حبها لعبد الرحمن ، وأن قصور أميَّة ستحول بينه وبينها إلى الأبد ، فريعت لهذا الخاطر فقالت : « لا يا مولاتى ، لا أريد بجوار رسول الله بدلا » .

فابتسم ابن رمُانة قائلا : « إنها تؤثر البقاءَ عندى . أليس كذلك يا سلامة ؟ » .

قالت سلامة : « بلى يا مولاى » .

فقالت جميلة : « ما أرى يزيد بن عبد الملك إلا ضاملكِ إلى قيانه فى قصره » .

فابتدرها ابن رمانة قائلا : « لا والله لا أبيعها له أبداً » .

فضحكت جميلة ضحكة ذات معنى ، ونظرت إلى ابن رمانة قائلة : « هيه يا بن رمانة ! ما أحسبك زاهدا فى ذهب آل مروان ! » .

أخذت سلامة بعد ذلك تختلف إلى جميلة تأخذ عنها أصول الغناء فى مدرستها ، فأحبتها جميلة وأكبرتها لما رأت فيها من الموهبة الفنية العظيمة ، وآثرتها بالعناية على تلميذاتها الأُخَر ؛ و لم يمضِ زمنٌ طويل حتى وثقت بقدرتها ، وعهدت إليها بتعليمهن بعض الألحان التى أجادتها ، فكانت سلامة تقوم بذلك خير القيام .

ولكن ظهورها عليهن فى هذه المدة الوجيزة ، واختيار جميلة إياها رئيسة لهن أثارا فى أنفسهن حسدًا لها وغيرة منها ، فأخذن يؤذينها ويتغامزن عليها ، ويتندَرن بينهن بأحاديث حبها للقس وغرامها به . فكانت سلامة تُعرِض عنهن وتترفع عليهن ، فيزيدهن ذلك وجدًا عليها .

وكانت فيهن جارية رائعة الجمال كثيرة الدلّ سليطة اللسان تُدعى

حُبابَة ، كانت تترأسهن قبل مجيء سلامة ، فلما فقدت زعامتها شق ذلك عليها ، فجدت فى مناهضتها وتولّت كبر الائتمار بها ، فكانت تعيّر سلامة حينًا بدمامة الوجه ، وحينًا بقبح الصوت ، وتارة بمخالفتها لأصول الغناءِ ، وكثيرا ما تسمع من سلامة ميلا فى لحن من الألحان وخروجا عن أصله فتأخذ عليها ذلك ، وترفع أمره إلى جميلة ، وتستشهد زميلاتها على ذلك فيشهدن لها فَيُبُؤْن من جميلة بخيبة المسعى وسوء الرد ، إذ تقول لهن : إن ذلك دليل على تفوق سلامة ونزْعتها إلى الابتكار .

وجلست جميلة ذات يوم تلقنهن لحنًا جديدًا فحذِقَتْ سلامة قبلهن كدأبها فى ذلك ، فقالت لتلميذاتها « لَكُنَّ الآن أن تأخذن هذا الصوت عن سلامة » .

فقالت إحداهن : « ليس اليوم يا سيدتى فقد تعبنا » .

فضاقت جميلة ذرعا بهن وقالت : « آه منكن ! تردن أن تكنَّ مغنيات ولا تصبرن على العمل ! لقد كنت فى سنكن فكنت ربما أقطع الليل كله أتدرب على لحن واحد لأحذقه » .

فقالت جارية أخرى : « غدًا نأخذه عنها » .

فنظرت إليها جميلة مغضبة وقالت : ماأشقانى بكن ! وما أخيب

رجاءَ مواليكن فيكن . انصرفن إذا شئتن ! » .

ثبتت الجوارى فى مقاعدهن وخفضن رءُوسهن كأنما أشفقن من غضب جميلة ، ثم طفقن ينظر بعضهن إلى بعض ، تنظر كل واحدة منهن أختها لتقوم قبلها .

ونظرت جميلة إلى سلامة وقالت وقد سكت عنها الغضب : « أما إذ كسلتن وأبيتن التدريب ، فاجلسن قليلا لنسمع إلى سلامة » .

وابتسمت لسلامة قائلة : « غنينا يا سلامة أبيات ابن أبى عمار (ألا قل لهذا القلب) ، فإنها تعجبنى و لم أسمعها منك منذ زمن » .

فقالت سلامة : « أعفينى يا سيدتى » .

فألحت عليها جميلة قائلة : « بحياتى عليك إلا ما غنيتهالى » فلم تجد سلامة بدًا من إجابتها إلى ما سألت ، فأخذت عودها متثاقلة كأنما تدفع لذلك دفعًا ، وظلت برهة واجمة تنظر إلى عودها كأنها تسترجع شيئًا غاب عنها ، وأخذ العرق يرفض من جبينها حتى أشفقت عليها جميلة وكادت تعفيها مما سألت ، لولا أن رفعت سلامة رأسها وقد استنار وجهها وبرقت عيناها ، وطفقت تداعب عودها وتغنى :

ألاقل لهذا القلب هل أنت مبصر ؟   وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر

حتى إذا بلغت قوله :

نُخذا الزاديا عينيَّ من نور وجهها فما لكمـا فيـه سوى اليـوم منظـرُ

خنقها النشيج فلم تستطع إتمام الصوت .

فعز ذلك على جميلة ، وكانت قد اشتد طربها وطارت روحها فى سماء الأحلام ، فقالت : « مالك يا سلامة ؟ استمرى فى غنائك ، فوالله إنه لِغناءٌ ما سمعت مثله » .

فقالت سلامة : « لا أستطيع يا خالة » . وظلت تغالب عبرتها كأنها تتقى شماتة حواسدها بها حتى أعجزها ذلك ، فانفجرت باكية .

فسكتت جميلة مشفقة ، وأخذ بعض الجوارى يتغامزن بينهن ، ووجم بعضهن كأنما أخذن بروعة الموقف فاستحال حسدهن لسلامة عطفًا عليها .

ومرَّت ثوانٍ ثم قالت جميلة وقد اقتربت من تلميذتها الباكية : « أإلَى هذا الحد تحبينه يا سلامة ؟ ويْحكِ ! إن الرجال لأهون من أن تقتلى نفسك فى آثارهم أسفًا وإنَّ عهدهم لَأوهى من بيت العنكبوت » .

فقالت سلامة وقد رفعت إليها طرفها الغارق فى الدمع : « إلا ابن أبى عمار ، فوالله يا خالة إنه ليصعِّد أنفاسه من حرقة الوجد فكأنما

يلفظ كبده فلذة فلذة ، فأحسُّ كأن قلبي يشك بالخناجر ! » .

قالت جميلة : « إنك ما تعرفين يا بُنَيّة خداع الرجال ومكرهم » .

فقالت سلامة وقد كفكفت دمعها : « ليس ابن أبي عمار بماكر ولا خداع . إنه برىء كالطفل ، حتّى كالعذراء ، طاهر كالمَلَك ! » .

فابتسمت جميلة ابتسامة يخالطها الحنو والشفقة قائلة : « دعى عنك هذا ، فستسلينه وتنسين كل ما يتصل به عندما يضمك قصر الخليفة بدمشق ، فقد بلغني أنه يبعث رسله في شرائك من مولاك » .

فريعت سلامة لذكر الخليفة وقالت : « سيكون ذلك أشقى لحالى ، وأتعس لحظى ، إذْ يزيد شقة ما بيننا بعدًا . ولن يقدر عبد الرحمن بن أبي عمار أن يشتريني بعد ذلك . مسكين عبد الرحمن ! إنه يقتل نفسه كدا في كسب المال ليقدر على شرائى » .

فقالت جميلة في لهجة فيها شىء من الشدة : ويحك يا مجنونة ، أتفضلين أن تقيمى عند رجل فقير يقبرك في كسر بيت في مكة ، على أن تعيشى عند الخليفة في قصر عظيم وملك كبير ؟ » .

وكانت حبابة فى أثناء ذلك تتحفَّز للقول ، وإنما سكتت على مضض تنتظر ثُغرةً فى الحديث تنفذ منها إليه ، وكان قد انتهى إليها أن الخليفة سمع بجمالها وغنائها فبعث رسله فى طلبها وكثيرًا ما ذكرت ذلك لصواحبها مُدِلةً معجبة ، فما إن سمعت سلامة تعلن زهدها فى هذا الأمر الكبير لديها حتى رأت الفرصة سانحة للاعتراض عليها . فقالت تخاطبها : « هذا والله جنون منك .. أما أنا فيكون اليوم الذى يضمُّنى فيه قصر الخليفة بدمشق أسعد أيام حياتى ، وإنى لأعدُّ له الأيام » . وعزَّ على سلاّمة أن تسمع هذا القول من حبابة فى مثل هذا الموقف ، فقالت لها بازدراء : « ذلك أشبه بك يا حُبابة ! » .

فاستشاطت حُبابة غضبا وقالت : « ماتعنين بهذا ! أتريديننى أن أكون متكلفة مثلك ، تصدعين الرءُوس با بن أبى عمَّار هذا كأن ليس فى الدنيا رجل مثله ! » .

فقالت سلامة وقد تهيأت لمناوأتها ومقابلة عدوانها بمثله : « ليس لك أن تقولى هذا حتى يحبك رجل كابن أبى عمار » .

« أف لك . فوالله إن وجهى لأجمل من وجهك هذا الشاحب ، وإن صوتى لأعذب من صوتك المبحوح » .

فقالت سلامة وقد نفد صبرها : « أتسكتين أو ... » .

فبادرتها حبابة قائلة : « أو ماذا يا سلامةَ القس ؟ » .

قالت سلامة : « أو ألطمك ! » .

فأدارت لها حبابة خدها وقالت تتحداها : « هيا الطمى ، أخزاك الله وأخزى ابن أبى عمارك ! » .

فهمت سلامة بلطمها ، ولكن جميلة حالت بينها وبين ذلك وقالت : « لا يا سلامة لا تفعلى » .

والتفتت إلى حبابة مغضبة وهى تقول : « أهكذا تزعجين سلامة يا حبابة ؟ أتحسبين نفسك خيرًا منها ؟ والله لو تعلمت الغناءَ طول عمرك ما بلغت مبلغها » .

فقالت حبابة : « إنها هى التى سبَّتنى » .

قالت لها جميلة . « ولكنك كنت البادئة .. أغرك يا هذه أنَّ الخليفة بعث فى طلبك أيضًا ؟ والله لن تفلحى هناك إلا إذا كانت سلامة بقربك ترشدك فى صناعتك » .

فقالت سلامة : « والله لا أعلمها ولا أرشدها بعد اليوم » .

فأخذت جميلة تترضاها وتقول لها : « بل تعفين عن أختك يا سلامة من أجلى أنا » . وأشارت لحبابة قائلة : « اعتـذرى إليها أنت » . فلم يسع حبُابة إلاَّ أن قالت لسلامة : « معذرة يا أختى . والله لا أسمعك ما تكرهين أبدا » .

الفصل الثالث عشر

لنعد إلى مكة لنرى ماذا فعلت الأيام بابن سهيل وابن أبي عمَّار بعد إذْ ودَّعا سلامة ورجعا إلى مكة بجسميهما ، أمَّا قلباهما فقد رحلا مع الركب .

رجعا إلى مكة ليستقبل أحدهما حياة الفقر بعد الغنى ، والشدة بعد الرخاءِ ، والشقاء بعد ذاك النعيم ، وليقضى الآخر أيامًا كلها وجد ويأس ، وليالى كلُّها سهد ودمع ! لقد جمعهما فى ظاهر الأمر مصاب واحد هو فِراقُ تلك المخلوقة التى كانت أنسهما فى الحياة ، ولكن ما أشد اختلاف أثر هذا المصاب فى هذين القلبين ، أما ابن سهيل فقد شغله همٌّ غيره عن هم نفسه ، فجعل وكدهُ تعزية صاحبه عبد الرحمن وتسليته وتعليله بالأمانى والأحلام ، وسرعان ما اطمأنَّ إلى حياته الجديدة واستمرأ مريره كأنما لم تنزل به نكبة فقد فيها كل ما ملكت يده ، ولولا ما يُقلق باله مما يرى من أثرها فى صديقه عبد الرحمن الذى يبكى بين يديه كالطفل ، ومايؤرِّقه أحيانا فى هدأة الليل

حين يذكر أرامل ويتامى وشيوخًا عجزة كان ينفق عليهم بمكة فلا يدرى ماحالهم تحت ستار ذاك الظلام ، لكان موقفه من مصيبته موقف الحالم يرى فى نومه كأنَّ مصيبة عظيمة نزلت به ، فيستيقظ مرعوبا فلا يرى شيئا فيحمد الله على أنها لم تكن إلا فى المنام !

وأما عبد الرحمن فقد استغرقه همُّه فشلَّه عما سواه ، وأذهله عما حوله ، وانحصر فى نفسه ، فعاش منها فى سجن ضيق لا انطلاق له منه ، فشعر كأنه يعيش غريبًا فى هذه الدنيا لأنَّ سلامة هى الدنيا عنده رحلت عنه ، وكذلك يختلف حبّ المرأة عن حب الخلق ، أحدهما ضيق تملؤه الأثرة ، والآخر واسع يعمره الإيثار .

تعزى الصديقان بعد فترة من الزمن واندملت جراحهما الدامية ، فإنَّ للأيام يدا تمسح كما أن لها يدا تجرح ، وعاد الأمل إلى قلب عبد الرحمن ، وكان معظم الفضل فى هذا يرجع إلى ابن سهيل فقد استطاع أن يفيض من عزائه على قلب صديقه ، وكان فى أول الأمر عزاءً سلبيا ولكنه ما لبث أن صار فى قلب الشاب المحب عزاءً إيجابيا ، ثم صار أملا ثم تحول الأمل عزمًا ، ثم تحول العزم إلى عمل .

لقد عرف عبد الرحمن السوق من قبل واشتغل بالسمسرة فيه فربح ، فلمَ لا يعود إلى عمله ويجتهد فيه حتى يجمع من المال ما

يستطيع به أن يغوى ابن رُمَّانة فيبيع له سلامة ؟ عنده ثمن الضيعة التى باعها فلمَ لا يشتغل بالتجارة ويستثمرها وبالكسب ؟ و لم لا يشترك مع ابن سهيل فى هذا العمل ؟

و لم يعرف ابن سهيل الصفْق فى الأسواق من قبلُ . و لم يسبق له بالتجارة عهد ؛ فقد ولد فى مهد النعمة ونشأ فى بحبوحة اليسار ، فكأنما خلق فى الدنيا لينفق لا ليكسب . و لم يكن نادمًا على ما أضاع من الدنيا فقد كان يراها عرضًا زائلا ، فقضى لبانته منها إذ كانت مقبلة ، فلم يأسف عليها حين أدبرت . وقد بقيت له صُبابةٌ من المال يستطيع أن يعيش بها قانعًا بقية حياته ، فعلام يكدح ويتعب فى الأسواق ويتكلف من ذلك ما لا يحسنه ؟ ولكنه تذكر صديقه الشاب الصالح وحبه لسلامة وأمله فى قربها ، فعز عليه أن يدعوه لمساعدته فى الوصول إلى أمله فلا يعينه بكل ما يقدر عليه .

ورأى الناس ابن سهيل وابن أبى عمار يعمـلان فى السوق ويضطربان فيه ، فربما مر بهما من كان يعرفهما منهم فسبَّح الله وعجب من تقلُّب الأيام .

ومر عامٌ ونصف قضياه فى العمل الجاد المتواصل يحدوهما فيه أملٌ واحد يبسم لهما فى وجه سلامة ! وكانا كثيرًا ما جلسا من الليل

يتسامران ويستعيدان ذكريات الأيام الماضية فيضحكان حينًا ، ويأسيان حينًا ، ويفترقان على العزم لمضاعفة الجهاد ومواصلة العمل .

وكانا فى خلال ذلك يتسقطان أنباءَ سلامة من الواردين عليهما من المدينة ، ويتلقيان ما تسير به الركبان من أغانيها . ولم ينسيا يومًا لقِيًا فيه واردًا من المدينة وكان من محبى الغناء ، فأنشدهما اللحن الذى صنعته سلامة فى أبيات ابن أبى عمار « ألا قل لهذا القلب » ، فكادا من طرب يذوبان !

وبارك الله فى تجارتهما فجمعا من المال ما حسباه كافيًا لإرضاءِ ابن رمانة ، فعقدا العزم على السفر إلى المدينة ؛ وما هى إلا أيام حتى رؤيا يخفقان على ذلولين فى ركبٍ مجد يضرب فى الصحراءِ نحو طيبة ! وكان عبد الرحمن لا يمر برابية أو ماءٍ أو حِلةٍ من الحلل أو علَمٍ من أعلام الطريق إلا خفق قلبه ، وقال فى نفسه : « لقد رأت هذا عينا سلامة ! » .

وإذا لم يبق دون المدينة إلا يوم واحد اعتزلا الركب وانفردا عنه بذلوليهما يستعجلان الطريق . ولاحت لهما معالم المدينة فلم يملكا دمعهما فرحا . واستيقظت فيهما ذكريات الرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه ، وجهادهم فى سبيل الله حتى ظهر دينه على

الدين كله .

وأقبل أُحُدٌ يتهلل ! فتهلل قلباهما له ؛ وروى ابن سهيل لصديقه قوله عليه الصلاة والسلام فى أُحُد : « هذا جبل يحبنا ونحبه ! » .

فأخذت عبد الرحمن سورةٌ من الطرب كأنه لم يسمع هذا الحديث إلا تلك الساعة من ابن سهيل ، وما كان الأمر كذلك ، وإنما أثار الحديث ساعتئذ فى نفس عبد الرحمن شيئًا لم يكن يثيره من قبل فخاله جديدًا عليه وليس بجديد . فقد شعر عبد الرحمن فى تلك الساعة كأن أحدًا ليس جبلا من صخر أصمّ ، ولكنه مخلوق حيٌّ يتنفس ويشعر ...... ويحب !.

ذكر عبد الرحمن الحب فذكر سلامة ، ونظر إلى الجبل الحبيب فود لو استطاع فاحتضنه ! وجاشت نفسه بصور من المعانى وعاها قلبه وقصر عنها عقله ولسانه . هذا جبل يحنو على المدينة ويرعاها كأن الله أقامه ليحرسها ، وفى المدينة محمدٌ حبيب الله وحبيب المسلمين ، وفى المدينة شخص آخر يحب عبد الرحمن ويحبه عبد الرحمن ... « فيا أيها الجبل الحانى على المدينة ما أحناك علينا ! وما أحبنا إليك وأحبك إلينا !! » .

وأخذا يسيران على مهل بين النخيل والزروع فى ضاحية المدينة ،

كالمشفقين على ذلك الطريق الوادع بين الماء والظل أن يقصر أمده ، أو كالمتهيبين دخول مدينة الرسول .

حتى إذا أشرفا على الديار خفق قلباهما ونظر كلاهما إلى الآخر كأنه يقول له : « ها نحن أولاءِ قد وصلنا » .

قال ابن سهيل : « ما أجمل المدينة ! إن القادم إليها ليحس لها بشاشة وأنسا » .

فقال ابن أبى عمار : «صدقت يا بن سهيل ، ولكنى لا أدرى لماذا أراها اليوم آنس مما كنت أراها من قبل » .

فابتسم ابن سهيل وقال له : « ألِأَنَّ فيها سلامة ؟ » .

فسكت عبد الرحمن هنيهة ثم أشار إلى الجانب الغربى من المدينة وقال : « إنى أجد نفسها من هذا الجانب !» .

قال ابن سهيل : « أبشر يا عبد الرحمن فسنراها قريبًا » .

فاندفع عبد الرحمن يقول : « وافرحتاه ! ليت شعرى أتعود إلينا سلامة ؟ أيرضى مولاها أن يبيعها لنا ؟ » .

فقال ابن سهيل : « لِمَ لا ؟ نحن عارضون عليه ضعف المال الذى اشتراها منا به ؟ وقد بلغنى أن من دأب هذا الرجل أن يشترى

الجوارى فيعلمهن الغناءَ حتى إذا برعن فيه باعهن بأثمان كبيرة » .

ودخلا باب المدينة وأخذا يجولان فى شوارعها حتى وقفا على دار ابن أبى عتيق ، فنزلا عن ذلوليهما واستأذنا عليه ، فخرج لهما رجل كهل حسن الهيئة ، فما إن رأى ابن سهيل حتى اندفع إليه يعانقه قائلا : « أهلا يا بن سهيل ، مرحبًا بالصديق الكريم ! » . ثم صافح عبد الرحمن وقال لابن سهيل : « من هذا الشريف الذى معك ؟ » . فقال ابن سهيل : « هذا صديقى عبد الرحمن بن أبى عمار » .

قال ابن أبى عتيق : « القسّ ؟ .. أهلا بك وبه .. هبا بنا إلى المنزل » .

فقال ابن سهيل : « ما نريد أن نثقل عليك يا بن أبى عتيق » .

قال ابن أبى عتيق : « لا والله لا تنزلان إلا عندى » .

قال ابن سهيل : « شكرًا يا بن أبى عتيق .. ألا تدلنا على دار ابن رمانة » .

قال ابن عتيق : « لعلكما تريدان أن تريا سلامة ؟ » .

قال ابن سهيل : « هو ذاك » .

فقال ابن أبى عتيق : « إذن نذهب معًا لسماعها فى مجلسها بعد

العصر » .

فاعترض ابن سهيل قائلا : « ولكنا لم نُدْعَ إلى هذا المجلس فلن نحضره » .

فقال ابن أبى عتيق : « إنه مجلس يحضره من شاءَ من أهل المدينة بغير دعوة » .

قال ابن سهيل : « كيف ذاك ؟ » .

فأجابه ابن أبى عتيق قائلا : « إن ابن رمانة رجل تاجر يحب المال ، فهو يعقد لجاريته مجلسًا كل أسبوع يحضره من يشاء ليشتهر أمرها ، فيبيعها لمن يُغلى له الثمن » .

فخفق قلب عبد الرحمن عند سماع هذا ، وبرقت أسارير وجهه ولم يتمالك أن قال : « إذن فهو يريد بيعها ؟ » .

قال ابن أبى عتيق : « لا شك .. وهذا أسلوبه فى التجارة .. » .

ونظر إلى ابن سهيل قائلا : « كأنى بك جئت تسترجعها يا بن سهيل » .

قال ابن سهيل : « ذلك ما جئنا منْ أجله » .

فعز هذا على ابن أبى عتيق ، إذ كان قد سمع بما بعث الخليفة لشراءِ سلامة ، ولكنه آثر أن لا يفاجىء صديقه بهذا النبإ ، وأن يتركه حتى

يعلم ذلك بنفسه من ابن رمانة ؛ فقال : « أما والله إنها لجوهرة لا تصلح إلا لك » .

قال ابن سهيل : « ألا نذهب إليه الآن لنكلمه فى شأنها ؟ » .

قال ابن أبى عتيق : « ليس الآن .. حتى تستريحا وتزيلا عنكما غبار السفر ، فإذا كان العصر شهدتما مجلسها فقابلتما ابن رمانة » .

قال ابن سهيل : « ولكن لا نريد أن يعرفنا أحد فى المجلس » .

قال ابن أبى عتيق : « لكما علىَّ ذلك فاعتمدا علىَّ » .

وأمر ابن أبى عتيق غلمانه بإدخال خرجيهما والعناية براحلتيهما ، ودخل بهما المنزل ، فتغديا عنده ، وصليا الظهر واستراحا ، حتى إذا كان العصر اغتسلا وخرجا مع ابن أبى عتيق إلى المسجد ، فشهدوا الجماعة ، ثم خرجوا يقصدون دار ابن رمانة .

وأشرفوا عليها فإذا دار كبيرة تحيط بها حديقة غناءُ ، وإذا فناءٌ واسع تحت الدار قد نصب فى وسطه حجاب كثيف يجلس فى جانب منه الرجال ، وفى الجانب الآخر النساءُ يأتين إليه من باب خاص بهن .

كانت سلامة قاعدة على كرسى موضوع بين الجانبين بحيث يراها الرجال والنساءُ ، وعليها حلة لازوردية ، وأمامها منضدة تضع عليها

العود والشراب . وكان الناس قد دخلوا أفواجا فقعدوا على الأرض المفروشة بالطنافس ، وغص المكان بالحاضرين ولا سيما جانب الرجال .

وبدأت سلامة تعالج عودها وتشد ما ارتخى من أوتاره .

وكانت امرأة تقول لأخرى جاءت وجلست بجانبها « أهلا بك يا عافية . ما جاء بك ؟ إنى لم أرك هنا قبل اليوم » .

فأجابتها صاحبتها بلهجة شاكية : « لا تسلينى يا خديجة .. جاءَ بى هنا ماجاءَ بك .. لقد تزوج بعلى امرأة أخرى وهجرنى ، فجئت أتسلى بغناءِ سلامة ! » .

فقالت المرأة الأولى : « أيهجرك بعد ذلك الحب كله ؟ » .

فتنهدت صاحبتها وقالت : « هذه قسمتى يا خديجة » .

وكان رجل من الحاضرين يكلم صاحبه ويقول له : « حقا والله إن سلامة لنعمة من الله على أهل طيبة .. إنها تسلى همومهم وأحزانهم » .

فقال له صاحبه : « لكنها لن تدوم لنا .. لقد بلغنى أن رسل يزيد ابن عبد الملك قد جاءُوا لشرائها من ابن رمانة » .

فقال الرجل : « لا حقق الله ما تقول » .

قال صاحبه : « إنى سمعت ذلك من بعض الرجال الذين لهم صلة وثيقة با بن رمانة » .

وكانت سلامة قد بدأت تغنى ، فسكت الناس كأنما على رءُوسهم الطير يستمعون إليها وهى تقول :

ألاقل لهذا القلب أنت مبصر ... وهل أنت عن سلامة اليوم مقصر
ألاليت أنى حين صارت بها النوى ... جليس لسلمى كلما عج مزهر

ودخل ابن عتيق وصاحباه فى تلك اللحظة فجلسوا فى أخريات الناس ، وذلك عندما كانت سلامة تقول :

فيا راكبًا إما بلغتَ لطيبةٍ ... وضمك واديها الأغرّ المنوَّرُ
فخذ ربوة واقرأ تحية عاشق ... له فى مغانيها من الأنس جؤذرُ

فهمس ابن سهيل لعبد الرحمن قائلا : « إنها أبياتك ياقسّ » .

فقال عبد الرحمن : « بأبى هى وأمى ! » .

فأسر إليهما ابن أبى عتيق قائلا : « إنها مولعةٌ بهذه الأبيات تغنِّيها دائمًا ، وهى أحب أغانيها إلى أهل المدينة » .

وغنَّت سلاَّمة وقد خالط صوتها البكاءُ :

أقول لقلبى كلما زاد خفقه ... إلام يعنيك الأسى والتذكر ؟
تصبَّر فصاح القلب هبنى احتملته ... بصبر ، فما يجدى على المتصبر

فطفق النساءُ يبكين وتعالى النحيب من جانبهن .

وغلب عبد الرحمن الوجد حتى كاد يغشى عليه ، فأخذ ابن سهيل يسنده أن يقع على الأرض وهو يقول له همسًا . « تشدَّدْ يا عبد الرحمن ولا تفضحنا فى الناس ، إنهم بدءُوا ينظرون إلينا » .

وغنَّت سلامة بصوت قد براه الشَّجى فكاد يبيد :

خُذ الزاديا عينىّ من نُور وجهِها   فمالكما فيه سوى اليوم منْظرُ
غدًا تُتْعبان الجيدَطُول تلفت   فيعيى ويطْغَى المدمعُ المتفجِّر
تُريدان فى وجه الحبيبة نظرةً   ومن دون مثواها نجود وأغْورُ

و لم يقْو عبد الرحمن على احتمال ما به ، فشهق شهقة لفتت أبصار الناس إليه وهو يبكى ويترنَّح ، وقد ثقل على ساعد ابن سهيل حتى كاد يرضُّه ، واحمرَّ وجهه ، وجحظتْ عيناه ، وأخذتا تميلان إلى مصدر الصوت . فما إن أعادت سلامة قوله :

خذاالزاد ياعينىّ من نور وجهها   فمالكما فيه سوى اليوم منظر

حتى استوى على ركبتيه متطاولا وجعل يحدق فى وجه سلاّمة وعيناه زائغتان ، فلحظته سلامة فعرفت وجهه ، وعرفت ابن سهيل إلى جانبه ، والتقت عيناه بعينيها فوقع عبد الرحمن على الأرض مغشيًا عليه .

فقال ابن سهيل : « أعنّي يا بن أبى عتيق لنحمله إلى المنزل » .

فنهض ابن أبى عتيق مع ابن سهيل فحملا صديقهما الشاب وخرجا به والناس ينظرون إليهما .

وتغيّر وجه سلامة وارتعشتْ أطرافها ، وأحسَّت كأن الأرض تدور بها ، فأشفقت أن يراها الناس كذلك أو يُغْشَى عليها فى الندىِّ ، فقامت عن كرسيها ودخلت باب الدار مسرعة .

واضطرب المجلس وسأل الناس بعضهم بعضًا عن الحادث حتى ارتفع اللغط .

ورؤى صاحب الدار يجرى منطلقا فى أثر ابن أبى عتيق وابن سهيل حتى أدركهما عند باب الحديقة ، فاستوقفهما وقال لهما « هلما به إلى الدار لنعالجه » .

فأجابه ابن أبى عتيق قائلا : « سنعالجه فى دارنا » .

فتشبث بهما ابن رمانة قائلا : « لا والله لا أدعكما تخرجان به من هنا فيقضى فى الطريق » .

فما كان منهما إلا أن نزلا على رأيه ، فقادهما إلى الدار من طريق آخر .

وانفضَّ الناس منصرفين ، وأخذ الرجال يخرجون من بابهم

والنساءُ من بابهن وهم يتساءلون عن الحادث ، ويروى بعضهم لبعض ما رآه أو ما سمعه .

« إنه القس عاشق سلامة » .

« القس الذى سميت سلامة به » .

« نعم هو » .

« ويحه ما أتعس حاله ! » .

« أما رأيت سلامة كيف اضطربت لما رأته ؟ » .

« نعم إنها هى الأخرى تحبه ! » .

أخذ عبد الرحمن بن أبى عمار إلى حجرة واسعة فى دار ابن رمانة فوضع على سرير أعدَّ له ، وقامت على رأسه سلامة تعالجه وترش ماء الورد على وجهه .

ووقف ابن رمانة وابن أبى عتيق وابن سهيل فى ركن من الغرفة يتحدثون بصوت خافض ، فيشكر ابن سهيل لصاحب الدار كرمه وبره ، ثم يذكر له ما قدم المدينة من أجله ، فيعلن إليه ابن رمانة أسفه ويخبره بأن سلامة قد أصبحت فى ملك يزيد بن عبد الملك ، وأن رسله سيحملونها وشيكا إليه ، وأن سلامة فى انتظارهم ليعينوا موعد السفر .

وكان ابن سهيل يسمع حديث صاحب الدار وهو لا يكاد يتماسك من الجزع والأسف ، ولا يدرى كيف يكون وقع هذا النبإ فى نفس عبد الرحمن .

وكانت سلامة فى خلال ذلك تسمع ما يدور بينهم من الحديث ؛ فكان الدمع يتساقط من عينيها ، وما منعها أن تعول بالبكاء إلا مكان حبيبها الفاقد وعيه على الفراش وهى تجتهد فى تنبيهه وإنعاشه . وأفرغت قربتين من الماء البارد على رأسه فتحرك وفتح عينيه ، فصاحت سلامة : « الحمد لله لقد أفاق من غشيته »

فدنا الثلاثة من السرير وقد بدا على وجوههم السرور يحمدون الله على نجاة صاحبهم .

فلما وقع نظر عبد الرحمن عليها قال بصوت مرتعش : « سلامة ! » .

فأجابته سلامة : « نعم يا عبد الرحمن .. أنا هى أمامك » .

وأحس عبد الرحمن بخفة فأراد القعود ، فأعانه ابن سهيل حتى إذا استوى قاعدا قال : « هيا يا سلامة نرجع إلى مكة ! » .

والتفت إلى ابن سهيل قائلا : « هل كلمت مولاها فى أمرها يا بن سهيل ؟ » .

فلم يجبه ابن سهيل بشيء ؛ والتفت عبد الرحمن إلى سلامة فرآها تبكي فسألها : « ما يبكيك يا سلامة ؟ » . فلم تجبه بغير البكاءِ ، فصاح عبد الرحمن قائلا :

« أخبروني ماذا حدث .. يابن سهيل ماذا حدث ؟» .

فتولى ابن أبي عتيق جواب عبد الرحمن فقال : « تجلد يا بن أبي عمار .. إن سلامة قد بيعت ليزيد بن عبد الملك » .

فنظر إليه عبد الرحمن ذاهلا وقال : «بيعت ليزيد بن عبد الملك ! » .

فأجابه ابن أبي عتيق : « نعم للخليفة ، فاصبر يا بني وفوض أمرك إلى الله » .

قال عبد الرحمن : « أين ابن رمانة ، أين مولى سلامة ؟ » .

فقال ابن رمانة : « ها أنا ذا هو يا بن أبي عمار » .

فقال له عبد الرحمن : « لا يا بن رمانة لا تبعها ليزيد .. بعها لنا ، نحن أولى بها منه » .

فقال ابن أبي عتيق : « إن الخليفة دفع فيها عشرين ألف دينار يا ابن أبي عمار » .

فقال عبد الرحمن : « عشرين ألف دينار ؟ » .



إن الخليفة دفع فيها عشرين ألف دينار يا بن أبي عمار !

قال ابن سهيل : « نعم عشرين ألف دينار ، وليس معنا إلا ألف وثمانمائة دينار » .

فقال عبد الرحمن : « سلامة أغلى من ذلك .. إن الدنيا كلها لا تكفى ثمنًا لها . أمهلنا يا بن رمانة سنأتيك بأكثر من عشرين ألف دينار . سنأتيك بما تريد » .

فأجابه ابن رمانة : « إنها خرجت من ملكى إلى ملك الخليفة ، ولو أنكم جئتم قبل ذلك لآثرتكم بها وقبلتُ منكم ما عندكم » .

فكبر على عبد الرحمن الخطب فلم يجد شيئًا يقوله ، وبقى صامتًا برهة من الزمن كأنه يحاور نفسه ويقول لها : « إلامَ تطمعين فى شىء لم يشأ الله أن يكون » .

ورأى ابن سهيل أن قد حان وقتُ انصرافهم من بيت ابن رمانة ، فقد استفاق عبد الرحمن وذهب عنه السوءُ ، فأومأ لابن أبى عتيق بذلك ، ففهم ابن أبى عتيق ما أراد وقال : « نشكرك يا بن رمانة على برك ومعروفك ، وإنا نرى أن تأذن لنا فننصرف » .

فقال ابن رمانة : « إنكم لم تذوقوا عندنا شيئا بعدُ ، فلا تنصرفوا حتى نصنع لكم طعاما » .

فقال ابن سهيل : « ليس بنا الليلة نَفس لطعام ، وحسبنا ما لقينا

من فضلك وتكرمتك » .

فقال ابن رمانة : « إنكم أحبَّاءُ سلامة ومواليها ، وإن لسلامة لمكانة عندى . ولن أدعكم تنصرفون حتى تعدونى بأن تقبلــوا ضيافتى غدا » .

فقال ابن سهيل ـــ وقد فهم من عينى سلامة أنها تترجاه أن لا يرفض دعوة مولاها : « إذا أذن ابن أبى عتيق فإننا نقبل » .

فقال ابن عتيق : « ليس لى أن أستأثربكم دون ابن رمانة » .

وتهيئوا للانصراف ، فنهض عبد الرحمن ونظر إلى سلامة فرأى ابتسامة خفيفة على ثغرها كأنما تقول له : غداً سأراك » .

الخاتمة

أثارت رؤية عبد الرحمن وابن سهيل وجدًا قد دفنته الأيام فى نفس سلامة حتى كادت أن تسلوه ، فقد كانت تطمع فى قربهما منذ علمت أنهما يشتغلان بالكسب ليجمعا مالا يستردانها به ، فعاشت دهرًا على هذا الأمل . ولما علمت بأن الخليفة قد بعث رسله فى شرائها ، وأن مولاها لن يرغب عن المال الذى يعرضونه عليه فيها ، حزنت لذلك وأيقنت أن لا أمل لها فى الرجوع إلى مكة ، فوطنت نفسها على الرِّضى بما ليس لها منه بد ، وأخذت تحيى فى نفسها ما كانت تحلم به فى أيامها الأولى من البلوغ إلى قمة الشهرة بسطوع نجمها فى قصور الخلافة بدمشق ، تريد بهذا أن تخفف عنها بعض المصاب . ولكن شاءت الأقدار أن تنكأ الجرح المندمل فى قلبها ، إذ بعثت حبيبيها القديمين ليستر داها إليهما فى اليوم الذى كانت تتأهب للرحيل فى غده مع رسل الخليفة إلى الشام ، حين لم يبق فى استردادها مطمع .. ياليتهما جاءا قبل ذلك ، وإلا فليتهما لم يجيئا أبدا .

وكانت قد أنست إلى أهل المدينة لما رأت من حبهم لها ، وتقديرهم لفنها ، مما زهدها فى الشام وقصور الشام ، وجعلها تؤثر البقاءَ فى الحجاز وإن يئست من قرب حبيبها فيه ، فكيف وقد قدم هذا الحبيب وأوشك أن يحوزها وتحوزه لولا كتابٌ سبق !

ودنت ساعة الفراق ، واشتدت رغبتها فى البقاء بالمدينة ولو أياما معدودة تتملى فيها برؤية حبيبها العبقرىّ ، وتتزوَّد من لقائه للسفر الطويل .

فرجت إلى مولاها — وكانت تعرف أنه يعزها ويكبرها — أن يكلم رسل الخليفة فى تأجيل سفرها ثلاثة أيام أو يومين .

فقال ابن زمانة : « ما أحسبهم يرضَوْن بذلك يا سلامة » .

قالت له : « قل لهم إنكم تهيئون لى ما يلزمنى من الثياب والحلى » .

فأجابها إلى ماسألت ، ولكن الرسل رفضوا تأجيل السفر . قال لهم : « إنكم قادمون بها على الخليفة ، فأمهلونا ثلاثة أيام أو يومين لنجهزها بما يشبهها من الثياب والحلى والطيب » .

فقالوا له : « هذا كله معنا قد أعددناه ، فلا حاجة بنا إلى شىء منه » .

قـال لهم : « أمهلونـا إذًا يومًـا واحـدًا لتـودع صواحبها ومعارفها » .

فقالوا : « ليس عندنا إذن بذلك ، وقد أمرنا بالرحيل غدًا ، فلن نتأخر غدًا لحظة » .

أما عبد الرحمن ابن أبى عمار فقد قضاها ليلة نابغية فى دار ابن أبى عتيق ، كأنما جمعت فيها آلام حياته كلها ما قرُب منها وما بعد ، فحشى بها صدره جملة واحدة !

انفضَّ السامر فى الدار وأوى كل إلى مرقده ، حتى إذا غفت الجفون تسلل عبد الرحمن من جانب صديقه ابن سهيل فصعد السطح ، فانتبذ منه ركنًا لاتراه فيه العيون إلا عينًا واحدة لاتنام !

وكانت ليلةً قرَّةً يمرق فيها البرد إلى العظم ، وكان جسم عبد الرحمن يرتعد من شدته ، والندى يتساقط عليه ، ولا يكسوه إلا قميص خفيف . ولكنه لم يشعر بذلك كأنما كان فى منعة منه بشواظ النار التى تتسعر فى صدره .

وأخذ يناجى الله ويبكى ، ويركع ويسجد ، ويقوم ويقعد ، ويدعو الله ويرجوه ، ويشكو إليه ويستغفره ، ويسأله اللطف فيما قضى ، ويستلهمه الرشد والهدى ، ويستعيذ به من غلبة الهوى وفتنة

الشيطان .

نسى عبد الرحمن فى هذا الموقف كل شىء .. إلا سلامة ، وقد عزت عليه فى الدنيا فطمع أن تكون له فى الآخرة ، ودعا الله دعوة هفا لها قلبه ، واقشعر بدنه ، ونظر إلى السماءِ فرأى نورًا أضاءَها لحظة فاختفى وسُمِعَ صوتٌ كأنه صدى يترجَّع فى الشعاب « آمين !.. » .

فاطمأن عبد الرحمن وشعر كأن قِربةً باردة أفرغت على النار فى صدره فخبتْ ! وتدفَّق الحمد من فيه كأنما كان عليه صمام فانطلق ، ورقأ دمعه إلا بقية عالقة بأهدابه تلمع فى ضوء النجوم !

و لم يلبث أن شعر بالبرد فى جسمه والبلل فى ثوبه ، فبرح السطح ورجع إلى مكانه حيث وجد ابن سهيل يغط فى نومه ، فاستبدل بقميصه قميصًا ، واندس تحت لحافه فنام .

ثم دخل ابن أبى عتيق على صاحبيه فأيقظهما ، فتطهروا للصلاة وشهدوا الجماعة فى المسجد .

وعجب ابن سهيل إذ رأى صديقه القَسَّ نشطاً طيب النفس على غير ماتوقعه منه : وقال لابن أبى عتيق فى ذلك فشاركه العجب ونصحه أن لا يقول له شيئًا فيهيجه .

وأجيبت دعوة ابن رمانة حين متع الضحى فحفلت داره بأحباب سلامة ضيوفًا أعزاءَ بولغ فى إكرامهم وإيناسهم ، فمد لهم السماط ، وقدمت ألوان الطعام والفاكهة ، وحُيوا بالريحان ونضحوا بماءِ الورد ، وأديرت عليهم مجامر العود والند .

وأسر ابن أبى عتيق إلى ابن رمانة يقترح عليه أن يدعو عبد الرحمن للقاءِ سلامة فى مكان منفرد ، لعله يريد أن يقول لها شيئًا ، ولعلها ترغب أن تفضى إليه بشىء قبل رحيلها ، فقال ابن رمانة : « حبًّا وكرامة » .

فكانت يدًا لابن أبى عتيق ظل الحبيبان يذكرانها ما عاشا .

وخلا الحبيبان فحيا كلاهما الآخر تحية أفصح عنها القلب حين قصر اللسان ، ومرت لحظات غالية من الزمن قضياها فى صمت يتكلم !

وكانت سلامة بطبيعة الأنثى فيها أحرص من صاحبها على نفيس الوقت ، فبدأت الحديث تقول : « ما بال عينيك حمراوين يا عبد الرحمن ؟ ألم تنم البارحة ؟ » .

فنظر عبد الرحمن فى عينيها وقال : « تسألينني عن عينيَّ .. وعيناك يا سلامة ؟ » .

فقالت سلامة : « هذه قسمتنا يا بن أبى عمار » .

قال عبد الرحمن : « نعم هذه قسمتنا يا سلامة .. على أنه لا ينبغى لك أن تجزعى .. إنك ذاهبة إلى قصور أميَّة ، وواجدة فيها ما يسليك وينسيك مسكينًا مثلى .. أما أنا .. » . وغلبه البكـاءُ دون إتمام جملته .

فقالت سلامة : « أتظن قصور أمية تنسينى إياك ؟ لا والله يا بن أبى عمار ، لأنت أحسن حالا منى . إنك تلجأ فى عبادة ربك بجوار الكعبة فتجد فى مناجاة ربك عزاءً عنى وعن كل شىء فى هذه الدنيا الفانية ، أما أنا فليس لى وجه أقابل الله به » .

« فيم يا سلامة ؟ ألست تصومين الفرض ؟ » .

« بلى يا عبد الرحمن » .

« وتصلين الخمس ؟ » .

« أصلى حينا وأترك حينًا » .

« لا يا سلامة لا .. إنى لن أتركك حتى تعاهدينى على أن لا تتركى صلاةً منذ اليوم .. ألست تحبيننى يا سلامة ؟ » .

« بلى يا عبد الرحمن إنى أحبك » .

« أما تحبين أن تكونى لى وأكون لك ؟ » .

« تلك الأمنيَّة يا عبد الرحمن . ولكن كيف السبيل إلى ذلك وقد

اشترانى الخليفة فانقطع كل أمل فى صيرورتى إليك ؟ » .

فقال عبد الرحمن والدمع يترقرق فى عينيه : « أجل انقطع كل أمل فى صيرورتك إلىّ فى هذه الحياة الدنيا ، أما فى الحياة الأخرى فإن الأمل باقٍ يا سلامة ، وإنه لأمل كبير ! » .

فقالت سلامة : « ولكنْ أنَّى لقيْنة مثلى تنفق ساعاتها فى مجالس الغناءِ والشراب أن تأمل فى الحياة الأخرى ؟ » .

قال لها عبد الرحمن : « أما الشراب ففى وسعك أن تكفىّ عنه . وأما الغناءُ فأنت محمولة عليه وهو صناعتك ، وأرجو أنْ لا حرج عليك فيه إذا أنت حافظت على صلاتك وصيامك ، وعصمت نفسك بالتقوى ، حتى يجعل الله لك منه مخرجا . وسأستغفر الله لك وأتصدق عنك بكل ما يفضل من كسبى ، وسأجتهد فى عبادة ربى عسى أن لا أكون بعبادة ربى شقيًا » .

قالت له سلامة : « ما أطيب قلبك يا عبد الرحمن وأسمى روحك ! وما أجدرك أن يستجيب الله لك . والله لأمتنعن عن الشراب وأحافظنَّ على الصلاة والصوم ، وأعصمنَّ نفسى بالتقوى ، ولأصَّدّقنَّ بكلِّ ما تصل إليه يدى ، والله يغفر لى ما دون ذلك » .

فقال عبد الرحمن وقد استنار وجهه : « افعلى يا سلامة ، واجعلى ذلك آية بقائك على عهدى » .

قالت له سلامة : « اطمئن يا عبد الرحمن من قبلى ، فوالله لأبقين على عهدك حتى ألقى الله .. ما أهون الحياة بدونك يا بن أبى عمار !! » .

قال لها عبد الرحمن : « لعلك تذكرين قول الله تعالى « الأخلاءُ يومئذ بعضهم لبعض عدُوٌّ إلا المتقين » .

فتغير وجه سلامة كأنها ذكرت شيئًا لا تحب أن تذكره ، وقالت : « عفا الله عنك يا عبد الرحمن ، أأردت تبكيتى وتذكيرى بشىء يؤلمنى ويجرح قلبى ؟ » .

فعرف عبد الرحمن ما تقصد ، وأسف لإيلامها من حيث لا يريد فقال لها ! « لا وربى ما أردت تبكيتك يا سلامة ، وإنما أردت أن أبشرك وأذكرك قوله عز وجل « إلا المتقين » ، فإنهم سيبقون أخلاءَ يوم القيامة » .

فسرى عن سلامة وعاد الإشراق إلى وجهها وقالت : « فسأذكرها إذًا يا عبد الرحمن ولن أنساها ما حييت : الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » .

فقال عبد الرحمن : « الآن اطمأن قلبى فاذهبى يا حبيبتى حيث شئت ، فإنك لى إن شاء الله » .

فقالت سلامة : « نعم يا حبيبى .. أنا لك إن شاء الله » .

ما أقصرها من ساعة مرَّتْ على الحبيبين خيل إليهما أنها لحظة لم يقضيا فيها شيئا ، وقد قضيا كل شىء .

ودَّع كلاهما صاحبه بعين دامعة ولكن بنفس مطمئنَّة .

وما هى إلا ساعة وساعة حتى أزف الرحيل وخرج المعجبون بسلامة من أهل المدينة — وهم خلق كثير — يشيعونها من رجال ونساءٍ وعلى وجوههم الكآبة والحزن ، فمشوا خلفها وهى راكبة على بغلة فارهة ، حتى وصلوا إلى سقاية سليمان بن عبد الملك فى خارج المدينة حيث كان رُسُل الخليفة ينتظرونها بجمالهم وهوادجهم ، فنزلت عن بغلتها وقالت للرسل :« قومٌ كانوا يغْشَوْنَنِي ويسلِّمون على ولابد لى من وداعهم والسلام عليهم ، فهل تأذنون لهم ليسمعوا منى فى هذه الرحبة ، وأشارت إلى رحبة واسعة لقصر هناك .

فأخذ الرسل يتشاورون ، فمنهم من أجاز ومنهم من منع ، وطفق الذين أجازوا يستنزلون رفقاءَهم إلى رأيهم يقولون لهم : أترغبون عن

سماعها فيتحدث عنكم أهل المدينة بأنكم غلفُ القلوب ، غِلاظ الأكباد ؟ وما زالوا بهم حتى وافقوا لسلامة : « افعلى ما شئت على أن لا تطيلى اللبث » .

فأشارت سلامة إلى الناس أن يدخلوا الرحبة لتودعهم بلحن تغنيه لهم ، فكادوا يطيرون من الفرح ، وأخذوا يلهجون بالثناء عليها ويدعون لها .

وتدفقوا إلى الرحبة حتى غصت بهم ، واشرأبت أعناقهم إلى سلامة وجعلوا يتطألون ليروها حيث فرح الطوالُ بأنفسهم كأن لهم يدًا فى طولهم ، وأسِف القصار لأنهم لم يكونوا طوالاً ، وتمنوا لو زيدوا شِبرًا ليروا سلامة وقد وقفت على موضع مرتفع خارج الرحبة وبيدها العود ، فأخذت تضربه وتغنى بلحن حزين وصوت مكلوم :

فاقُونى وقد علِمت يقينًا — ما لِمن ذاق ميتّة من إياب
إن أهل الحِصاب قد تركونى — مولعًا خاطرى بأهل الحصاب

فقال رجل من المشيعين : « واأسفاه عليك يا سلامة ! إنا لن نسمعك بعد اليوم ! » .

وقال آخر : « ما أسعد أهل الشام بك ! » .

وصاحت إحدى النساء : « سلام على أيامك يا سلامة ! » .

واستمرت سلامة فى غنائها :

إن أهل الحصاب قد تركونى مولعًا خاطرى بأهل الحصاب !
أهل بيت جار الزمان عليهم ما على الدهر بعدهم من عتاب !
كم بذاك الحجُون من حى صدْق وكهول أعفَّةٍ وشبابِ

وجعلت تكرر هذا البيت وهى تدور بعينها فى الجمع حتى لمحت عبد الرحمن بن أبى عمار واقفًا فى أخريات الناس وإلى جانبه ابن سهيل وابن أبى عتيق وكلهم ينتحب . فطفر الدمع من عينها وأخذت تمسحهُ بمنديلها ، وأخذت تغنى بنغمة مختلفة عما قبل وقد ارتفع صوتها واشتد رنينه : يا حبيبى ! يا حبيبى ! يا حبيبى !

يا حبيبى يومُ الفراق عذاب للمحبين يا له من عذاب !
وعزيزٌ علىَّ أن ليس عندى يا حبيبى لكشف هذا المصابِ
غيرُ نار فى مهجتى فى اتقادٍ ودموع من مقلتى فى انسكاب !
ولو اسطعت بعتُ عمرى بيوم فيه ألقاك يا أعز الصحاب !

ثم غيرت نغمتها أيضًا وغنت بصوت أهدأ وأنعم .

يا حبيبى ! يا حبيبى ! يا حبيبى !

يا حبيبى إنْ جار دهر علينا وسقانا بالبين مُر الشراب

فالليالى تفنى وحبك باق في فؤادى ومثل ما بك ما بى
شهد الله أن حبك عفٌّ سيكون الشفيع يوم الحساب

وصمتت لحظة ثم قالت وهى تجفف دمعها« شكرًا يا أحبائى لحسن وداعكم .. أستودكم الله جميعًا يا أهل طيبة ! أستودعكم الله يا جيرة الرسول ! » .

وكانت الدموع تنهمر من عيون القوم ، وما منعهم من أن يصيحوا بالبكاء وقت غناء سلامة إلا إشفاقهم أن يفسدوه عليها ، فلما انتهت من ذلك وأخذت تشكرهم وتستودعهم الله أطلقوا أصواتهم وصاحوا يبكون ويقولون :

« نستودعك الله يا سلامة ! يحفظك الله يا سلامة ! » .

ونزلت سلامة عن النشز ومشت تخترق الجمع حتى وقفت أمام هودجها ، فتلقاها مولاها ابن رمانة فصافحها مودعا ، وتلاه ابن أبى عتيق فودعته شاكرة ، وجاءَ ابن سهيل فصافحها فقبلت يده باكية ، وتقدم ابن أبى عمار فصافحها قائلا : «أستودعك الله يا سلامة ! »

فأجابته باكية : « أستودعك الله يا بن أبى عمار » .

قال لها : « لا تنسى يا سلامة آية الذكرى ».

فقالت : « لن أنساها يا عبد الرحمن » .

قال : « الأخلاءُ يومئذ ...... » .

فقالت : « بعضهم لبعضٍ عدوٌّ إلا المتقين » .

واستوت على هودجها فنهض الجمل البارك وتحرك الركب فتعالى صياح الجميع ، وطفقت سلامة تشير بيديها تحييهم ، ووقعت عينها على عبد الرحمن ابن أبى عمار ينظر إليها ويفتر ثغره عن ابتسامة تلمع بين الدموع وهو يردد : « إلا المتقين .. إلا المتقين .. » .

وكانت تلك آخر نظرة لسلامة فى عبد الرحمن ولعبد الرحمن فى سلامة .

وكانت هذه آخر كلمة سمعتها سلامة من عبد الرحمن ...



واستوت على هودجها ، فنهض الجمل البارك ،

وتحرك الركب فتعالى صياح الجميع

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) اخناتون ونفرتيتى
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسله والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) ماسأة أوديب
(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) اوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة
(٢٩) جلفدان هانم
(٣٠) فى ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات
(٣٢) الشيماء
(٣٣) إبراهيم باشا

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

كلمة الناشر

وفاء لذكرى متعدد المواهب ، الروائى ، المسرحى ، الشاعر ، الأديب ، الفنان على أحمد باكثير ..

وحفاظا على تراثه الغزير ذى القيمة من الاندثار والضياع ..

وخدمة للمكتبة العربية التى أثراها — آنفا — بفيض من تآليفه الرائعة فى مختلف فنون الأدب : الشعر ، والرواية ، والقصة ، والمسرحية ، والمسرحية الغنائية .

رأت « **مكتبة مصر — سعيد جودة السحار وشركاه** » التى كان لها شرف تقديم جل إنتاجه للقراء ابتداء من سنة ١٩٤٣ ، فأمتعت به أبناء الجيل الماضى .

أن تعيد طبع أعماله جميعا ونشرها فى ثوب جديد ، وفى قطع موحد ، حتى تتيح الفرصة لأبناء هذا الجيل والأجيال القادمة للتمتع — كذلك — بإنتاجه البارع الرفيع .

وتعتقد « **مكتبة مصر** » أن الأستاذ الراحل على أحمد باكثير ، برغم ما بلغه من مكانة مرموقة بين أدباء العربية ، لم ينل بعد كل ما يستحقه من التقدير الذى يؤهله لأن يكون فى القمة بين جميع الكتاب المعاصرين .

ذلك لأنه — وصديقه الراحل عبد الحميد جودة السحار — كانا هدفا لحملات ظالمة أحيانا ، ولإهمال متعمد أحيانا أخرى ، من بعض من كانوا يتحكمون فى النقد فى الصحف والمجلات فى تلك الأيام ، أيام غياب الحرية ، وتحكم الماركسيين فى أقدار الكتاب ؛ فقد وجهت إلى كل منهما تهمة أنه « يؤمن بالغيبيات » وأنه « غير تقدمى » ، كأنما الإيمان بالله والتمسك بالقيم الروحية يحطان من قدر الكاتب ويزريان بأدبه .

وإن هدف « **مكتبة مصر** » من إعادة نشر مؤلفاته ، وتقريبها من أيدى القراء ، هو أن تساعد على أن يوضع على أحمد باكثير فى المرتبة التى يستحقها بين كبار كتاب العربية ، وأن تعرف مؤلفاته الروائية والمسرحية طريقها إلى المكتبة العالمية .

وبالله التوفيق .

سعيد جودة السحار



مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٢٢٥ قرشا